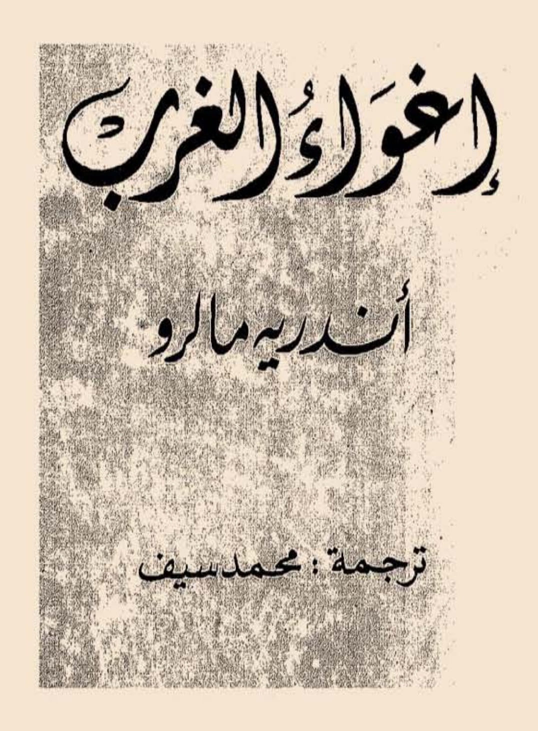

إغواءُ الغرب
أندريه مالرو
ترجمة : محمد سيف



كتاب شرقيات للجميع (١١)

إِغوَاءُ الغَرب

إغواء الغرب

أندريه مالرو

ترجمة: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٥

٥ شارع محمد صدقي - هدى شعراوي
باب اللوق - القاهرة
س . ت : ٢٦٩١٩٨ ت : ٣٩٠٢٩١٣

غلاف وإخراج: ذات حسين أبوزيد

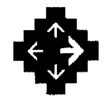
صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة



إغواء الغرب

أندريه مالرو

ترجمة : محمد سيف



العنوان الأصلي:
La tentation de l'occident
André Malraux
Grasset

«إن الذي يقتفي الآثارَ زمناً طويلا
يتشابهُ مع ظلهِ...»

مثل هندي من المالابار

إليكِ، ياكلارا،
في ذكرى معبد بانتياي - سراي

ملحوظة

الرسائل التي تكون الجزء الأعظم من هذا الكتاب، كتبها م م. أد، فرنسي، في الخامسة والعشرين من العمر، لديه بعض المعرفة بأعمال الصين، والسيد لينج. و. ي.، صيني، في الثالثة والعشرين، المأخوذ بفضوله للثقافة الغربية، ذلك الفضول الذي عانى منه بعض من مواطنيه، والتي هي ثقافة كتبية فحسب. وقد تبادلا هذه الرسائل خلال رحلات قاما بها، الأول في الصين، والثاني في أوربا.

ولئن لم ير البعض في السيد لينج رمزاً شرق أقصوي. فإن رمزاً كهذا الذي يرونه ليس وارداً تَحقُّقهُ. إنه صيني، كما تقدم، فإن له من الحساسية والفكر الصينيين قدراً لا يدفعه بدرجةٍ إلى إعدام الكتب الأوربية، ليس غير.

وهذه الرسائل تم انتقاؤها. وبنشرنا لها، فإننا نهدف إلى تحديد أبعاد كل من الحساسيتين، وأن نحفز الذين سيقرأونها على التفكير في طبيعة كل من مشاعرهم وعقولهم، التي تكاد تبدو واحدة.

❖

على سطح الشامبورد

على أني ما لقيتكم. أيها المتوحشون الذين يظهرون على غير انتظار ويقدمون للبحارة الفاكهة التي لها شكل القرون على الصحاف البدائية، بينما تُطِلّ القباب من وراء النخيل، أيتها الكشوف... إن الرجال الذين يتصيدون الأشكال واحداً بعد الآخر ويوصدون عليها الكتب قد أعدوا كل ما يعتمل في عقلي. موكب من الكائنات والمشاهد الطبيعية يتراءى لمخيلتي ببطء، هذا المساء، في صمت الليل على البحر ودبيب الآلات المنتظم حتى يكاد يتحد معه... هدوء عظيم، بحر مصقول، ساطع، تتراقص فيه نجوم الأعماق... في أثر سير السفينة تختفي ظلال آخر العشائر، من رافعي جماجم ثيران الأوروش الضخمة -تُرى رايات هي أم أسلاب؟- الذين يخطط ظلهم المتعرج السهولَ. على مبعدةٍ، جيوش آسيا الوسطى العاصفة، ببيارقها العالية المهيمنة على كل ما في طريقها، والمزخرَفة بالوشوم العتيقة السوداء. في الزمن الغابر.

في عمق الحريم، المحظيات، على مقربة من كوة في الحائط، كانت إحداهن (وهي التي ستصبح وصيةً فيما بعد) تُحادث

خَصِيّاً ذا عينين مُسمَلَتين، وفي القصر البنفسجي، يتفحص الامبَراطور البقايا الأثرية التي قام على البحث عنها في كل أنحاء الامبراطورية. كان الجو باردا. وفي الخارج، صراصير الحقل المتجمدة تتساقط من على الأفرع فوق الأرض الصلبة محدثة أصواتاً كأصوات اصطدام الحَصَى. في وسط أحد الميادين، السحرة الأشرار، يُحرقون على محرقة من أحطاب زكية الرائحة. الدُمَى الخشبية الصغيرة المحفورة، التي كانت تستخدم رُقىً للأميرات تفرقع وهي تُلقى كالسهام النارية. والجمهور -جمع من العميان!- يتراجع بحمية. على مقربة من الأفق، فوق الأعشاب البرية، خط من الهياكل العظمية يفترسه النمل المتعقب لسير الجيوش. وبالقرب من النيران، الساحرات الأرامل يقرأن الطالع.

وتهرول الثعالب مسرعة وهي تعبر الأنحاء.

كل ربيع يغطي براري مونغوليا بزهور تترية، بيضاء ذات قلب أرجواني. تعبر عليها القوافل؛ التجار الأقذار الذين يسوقون الجمال الكبيرة المشْعرة المحملة بالخراج، التي تتفتح عبر المراحل كالرمان. وكل صنعة الجن لمملكة الثلوج، من الأحجار التي لها لون السماء الصافية أو النهر المتجمد، والأحجار التي لها انعكاسات الثلج والريش المبلل للعصافير الرمادية، وجلود الثعبان والفيروز المطعم بالفضة تنهال على أصابعهم الرشيقة.

من أعلى الصوامع ذات الأسقف الأفقية لمقاطعات التبت، ينزل أجمل الأسرار، على طول الرمل الملبد، حتى ساحل البحر حيث يتفتح في عدد لا يُحصَى من المعابد المقببة التي تعلوها الأجراس الراعشة. البشر من بني جنسي يأتون إلى هنا على

قوارب بغير أشرعة ولا أعين. يدخلون الموانىء مع النهار.

الماء المزبد الداكن، يردّ أصداء الصيحات الأولى للبحارة بأوضح منها ؛ وبأعلى القوس المعتم، تعلو المدينة كلها بالحائط الذي يكللها والمزهر بالمعابد شيئاً فشيئا مع شروق الشمس ؛ على امتداد منظرها الجانبي الجاف تظهر غُرَر وزركشات الضوء. هاهم يبلغون الأرضَ، بعد الاصطدام ببعض الصخور. وهاهم يتجولون، سعداء وقلقين، وبالشوارع ذات الروائح التي تزعج أنوفهم، تتبعهم أصوات القطع الفضية التي يسعى لمبادلون إلى إثبات عدم زيفها برنّها بمطارق صغيرة. فجأة لمحوا امرأة، وانسدل الستار، فعكفوا على تذكر وجهها المريح وقدميها الصغيرتين، وسروالها الحريري والبقعة التي على صدريتها، ففي بطن غابة سوداء، ظل أشقر وزهرات معذبة...

هاهم يزورون بنوك الرهونات، وهي أبراج مثقبة بالفتحات، بجوار كل فتحة يوجد صحن مليء بالكبريت الذي يُلقي به الحراس على اللصوص عندما يحاولون الاستيلاء على النفائس المعهود بها للدولة.

مِن ثَمّ يعودون، يترجرجون على نحوٍ فظٍ بالمحَفّات الثقيلة، الآن تمتلىء حجورهم بأكوام مشترياتهم. هذا الثوب من الساتان الأبيض، كان فيما مضى ثوب الحداد لأميرةٍ من الجُزُر، راهن أحدهم على تاريخ موتها بلؤلؤةٍ حمراءَ بين شفتيه. في عمق مجرى السلام الشامل، الكهول المحاطون بالشمس يقومون أمام المراهقين الوقورين بعمل الإشارات السحرية التي تحدد بناء المدن، البعيدة جداً، في تركستان أو التبت، وعند تجار الطيور،

البغاوات التي تتحدّثُ لغاتٍ معقدةً، تَلَقّنَتها فيما مضى، لدى الحكماء ذوي الطواقي المجوسية، في الأربعين ألف جزيرة البربرية توغل المغامرون البيض إلى الداخل مسترشدين بالخبثاء، المشرقيين المنتمين لجمعيات سرية. وبعد أن تعلموا المنشورية وحلقوا حواجبهم، تزوجوا هناك بالمنشوريات. كان من بينهم جنرالات مرموقون، يقودون الجيوش الامبراطورية. وقد تنكروا تماما لأصدقائهم، والذين حاولوا رؤيتهم تعرضوا للموت بأوامرهم وفي الشمال القَطِن المتجبر، كان الامبراطور وحيداً في عمق أكثر القصور مهابة فيِ المدينة المحرمة، ينشر أصابعه الخفية على صين العمل، صين الأفيون، وصين الحلم، عجوزٌ كبيرٌ أعمى مُتوجٌ بالخشخاش الأسود... ظلال عتيقة، حكماء وعسكريون، أباطرة تانج ؛ أروقةٌ صاخبة تتصادم فيها كل عقائد وأنواع سحر العالم، مفكرون تاويون، ملكات مثبتات على الحائط بالأسهم الغليظة، فرسان بأسلحة مزينة بذيول الخيل، جنرالاتٌ مَوتَى تحت خيامٍ ضائعة بعد ستين انتصارٍ، قبورٌ لم تعد تحفَظُ شيئاً، في قلب الصحراء، محفورة صُوَرُ خَيلها وجنودها على شواهدَ منفصلة، أغانٍ نادبة، سهامٌ متوازية وجلَودُ حيوانَات تتقدم عَبر الأراضي الجدباء في ليلٍ صقيع فماذا سأجد من الهجمة الطرشاء لغزواتكم، سوى الأطلال؟

❖

من لينغ إلى أ. د

مارسيليا.

السيد العزيز،

نادرا ما تستدعي أوربا التخيلات الجميلة، ولقد أتيتُ إليها بفضولٍ عَدائيّ، فالأوهام التي خلقتها فينا، نحن الصينيين، كانت من قلة الوضوح بما لم يمكننا معه أن نجد فيها إرشاداً أو نجد متعةً في تحويرها: فالكتب، وقلقنا الخاص، جعلانا نبحث عن فكر أوربا بأكثر مما نبحث في تجسداتها. وحاضرها يجتذبنا أكثر من الإطار المهشم لماضيها الذى لا نطلب سوى بعض الإيضاحات حول قوته.

إن اسمها لا يثير في الذاكرة لا لوحات ولا رغبات. فالصور الفوتوغرافية التي شَهِدتُها لها في الصين لم تُظهر كما يجب حركة الجمهورِ في الغرب، بحيثُ كُنتُ أعيها كبلادٍ افترستها الهندسة. فقباب المنازل سقطت، وصارت الشوارع مستقيمة، والملابس صارمة، والأثاثات قائمة الزوايا. وصارت حدائق القصور تعرضُ -بشكل لا يخلو من تناسق- النظريات الهندسيةَ. فما يبدو لي أنه روح أوربا، هو الإبداع بلا توقفٍ منَ خلال العمل، لعالمٍ صار العملُ قدراً له. فالرضوخ لإرادة الإنسان قد هَيمَنَ على كل شيء فيها

بل إن الجونك(★)، ذلك الحيوان الأليف، يجعلني أري في القارب الشراعي الفرنسي مجموعة من المثلثات الهندسية. وكانت أوربا، أكثر ماتكون بالنسبة لي، هي المكان من الأرض الذي تحققت فيه المرأة.



(★) الجونك: القارب الصيني

باريس.

السيد العزيز،

أود أن أضيف بضع كلمات على خطابي الأخير الذي أرسلته لك يشجعني في هذا من ناحية أنني أبدأ في التعرف على القيمة المرتبطة بحسن نية المثقفين الفرنسيين، الذين يشبهون قليلا هؤلاء الذين نراهم بالصين ومن ناحية أخرى لأن بضعة أسابيع قضيتها هنا أضفت تحديداً على انطباعاتي. إنني أرى في أوربا بربرية تم تنظيمها جيدا، حيث فكرة الحضارة وفكرة النظام تمتزجان يوماً عن يوم. فالحضارة ليست قَطّ شيئاً اجتماعياً، وإنما نفسي ؛ إذ لا يوجد سوى أمر واحد حقيقي: هو المشاعر.

ماذا أقول عن هؤلاء البشر من بني جنسكَ؟ إنني أدرسهم، وأكَبُّ على اللجوء إلى الكتب. وأنا أعرف أن مترجمينا، لكي يجعلونتا نعرف عادات أوربا وكذلك أدبها، قد عمدوا لاختيار بلزاك، وفلوبير، والطبيعيين الفرنسيين، والروايات الأولى لجوته، وتولستوي، وديستويفسكي. وبتحليلهم لموهبة بودلير أظهروا عناية فائقة، لكن هؤلاء المسيحيين الاستثنائيين، عديمي الشعور تقريباً، غير أولئك الذين يصرخون ويبكون لآلام إمَّا بوفاري والإخوة كرامازوف -ومع ذلك...

أي انطباع بالألم يطغى على مشاهد الحياة عندكم، في كل هذه الكائنات المسكينة التي أراها في شوارعكم، فلا تُدهشني حيويتكم بنفس القدر الذي تدهشني هذه الوجوه المتألمة التي لا أستطيع تجاهلها. لأن الألم يبدو وكأنه في صراعٍ وجهاً لوجهٍ مع كل واحدٍ فيكم ؛ ويالها من معاناة خاصة!

إن عقيدتكم، السالفة، التي نظمت عالمكم بدهاء، توقظُ فيّ خصومةً ما، فليس بمقدوري النظر بغير احترام للصور شبه البربرية التي تأبد، بسببها، عذاب هائل متناسق. ولكنني لا أستطيع أن أمعن خيالي بغير أن يضطرب تأملي في أن كل قوة الحب تتركز على جسدٍ مُعدَم. والمسيحية تبدو لي أنها المدرسة التي جاءت منها كل الأحاسيس التي تشكل بها الوعي بأن الفرد يتعيش معرفياً على ذاته. لقد ذرعتُ صالاتِ متاحفكم، وجعلتني عبقريتكم أطفح ضِيقاً. لقد وجدتُ قوةً متوحشةً تحيا في آلهتكم نفسها، وفي عظمتها المبقعة كصورها بالدموع والدم. فحتى الوجوه الهادئة التي أردت أن أحبها منها، كان قَدَرٌ مأساويٌ فوق أجفانها المسدلة: لأنكم اخترتم لها أن تكون ممثلةً للموت.

هناك أيضا رؤانا نحن للحياة، التي هي تهجّد حِسي وهي تحاصرني بأكثر مما تُضيِّق عليّ الرؤى الأخرى. ألا تشعر إذن قبل كل شيء أنه لابد لك أن تكون من جنسٍ متوج بتاجٍ ثقيل من القوة والألم، لكي تُفاخر باكتشافِ جسدِ امرأة؟ إن عملاً فنياً حسياً من هذه الأعمال التي تحبونَها، عَملٌ من شأنه أن يثير القادرين على تذوقه بهذه الطريقة، وهذه الجاذبية أو القدرة هو عمل غير ناضج. وما يعطي القيمة لأنفس لفائفنا الحريرية، هو

قدرتها على أن تولد فينا الشعور بالتنوع اللانهائي للعالم. والفنون، فضلا عن ذلك، قليلة النبل في ذاتها، وما يرفع من قدرها يأتي من عناصر الصفاء التام في صيغها اللانهائية التنوع فهذه الخزفيات ليست هنا إلا لتأسر، واحدا بعد الآخر، الأشكالَ الألفَ للجمَالِ التي تواريها تلك الغرفة المعتمة التي يكتنفها الصمتُ.

فهي لا تُحصَى، ومجهولة، تلك الانفعالات المحكمة التي تجعلنا نهيم حول العالم، وأيدينا متحدة في قدحٍ من اللذة لا تستقر على شيء فيه، بمثل ما لا تستقر تلك البقع الزائلة التي يشكلها خيالنا من الظل...

والفنان ليس هو الذي يخلق: إنه الذي يشعر. ومهما تكن الصفات، والجودة لعمل فني ما، فهو غير ناضج، بما أنه لايعدو أن يكون اقتراحاً جماليا. وكل الفنون زخرفية. فقد ننتقي في حدائقنا شجر البامبو، وهو الذي تحب عصافير الخيال المتنوعة الألوانِ أن تأوي إليه، وأشجار البانيان، التي لها جلال الأناشيد الجنائزية، وقد نعهد برعايتها لبستانيٍّ كفء، ونعطي له راتبه وبعض الاحترام. لكننا إذا نظرنا إلى النهر الذي تنعكس عليه : سنجد أنه الوحيد الجدير بها.

كل حضارة تُنَمذج حساسيةً ما. والإنسان العظيم لاهو الرسام ولا هو الكاتب ؛ إنه الذي سيعرف كيف يصل بهذه الحضارة لأعلى مراحلها. مُنقّياً في ذاته حساسيةَ جنسه، عاملاً بلا توقف، على جعلها تعبر عن نفسها باتجاهِ متعةٍ أعلَى. وهذه هي حياة الذين في عداد ذلك النوع من الناس بيننا والذين تسمونهم بالأساتذة.

إن التفوق بالنسبة لكم. هو تفوق رجل السلاح، وتفوق الألم، وبالنسبة لنا هو تفوق الكمال، الذي يأتي من شدة العاطفة التي يوقظها فينا شعورٌ ما. والكمال عندكم، هو التضحية. والإعجاب يأتي من فعلٍ أما عندنا فهذا الكمال وذلك الإعجاب هما فقط الوعي بالوجود على النمط الأكثر جمالاً. فأنتم من خلال الأشكاله القديمة لفنونكم التي أسميتموها بالجليلة، تعبرون عن الفعل وليس عن الحالة. هذه الحالة التي نعرف عنها أنها طوع أمر كل من يحوزها، وهي حالة الصفاء، حالة تفتت النفس على مشهدٍ من النور الأبدي، التي لم يحدث أن بحث الغربيون عنها أبداً، ولا عن تعبيرها، ولا حتى استعانوا بالقبس الخافت الذي يعرضها في بعض مواضع البحر المتوسط.

هذه الحالة هي التي جاء منها التعبير الوحيد الجليل للفن وللإنسان: وهي حالة السكِينة.

وكنتُ أودُّ، أيها السيد العزيز، أن أحدثك أكثر عن البشر؛ ولكنني لم أرَ بعدُ سوى الأعمال.

❖

باريس.

السيد العزيز،

إني أرى الأوربيين، وأستمع إليهم، وأعتقد أنهم لايفهمون ماهي الحياة. لقد اخترعوا الشيطان؛ وإنني لممتنٌ لخيالهم في هذا؛ ولكن منذ أن مات الشيطان، يخيل لي أنهم صاروا فريسةً ألوهيةِ فوضى أعلى منه مرتبةً : وهي العقل.

لقد قُدَّ العقل عندكم بطريقة أحادية، مثله في ذلك مثل الحياة، التي لا تدركونها إلا مُجزّأةً. فدائماً أنتم متجهون نحو هدف، ونحو ذلك الهدف أنتم محمولون عن بكرة أبيكم. أنتم ترتدون الغَلَبة فماذا تجدون تحت انتصاراتكم البائسة؟

نحن الصينيين، لا نريد إدراك حياتنا، إلا في مجموعها. ليس لأننا قادرون على معرفة هذا المجموع. لكن لأننا نعرف أنه يتخطى كل فعل من أفعالنا، وأنه بالضرورة يتجاوزه. ومثلما، قد يُوجَد بين التخطيطات القديمة رسمُ ذراعٍ ولا يُعرَفُ شيٌ عن الموديل صاحب هذه الذراع في الحياة، أنتم تعرفون أنه كانت في نهاية هذه الذراع يدٌ ما، ونحن بنفس الشكل. نشعر أنه بعد كل فعل، أيا ما كانت أهميته، فإن له حياة تظل خفية، تبعث بتفرعاتها التي بغير عد. فالحياة متوالية من الممكنات من بينها لذتنا أو ميلنا الخفي

سواء للانتقاء أو للزخرفة... ونحن لانريد أن نفعل بعقلنا، إلا ما يفعله المتفرج على لعبته الخاصة، لعبة التحوير المتوالي للكون. وأعلم آن ذلك يبدو لكم عبثاً. لذا فإن حركات الظل التي تكون كل ما يمكن لروحٍ نقية أن تسترقه بالعالم وما يعرضه العالم نفسه بصوت خفيض تبدو لي مع هذا أنها العَرَضُ الوحيد الذي يمكنه بغير خجل أن يمتع كائنا متحضرا.

ومن المؤكد، أنني، برغم الاهتمام الذي أصرفه، ليس بمقدوري أن أُلِمّ بعملٍ فني قدرَ إلمامكم. فحساسيتي تتعارض مع ما يحدهُ عقليَ. ولست أرى في ذلك ما يعني أن لديكم الرغبة في الواقعية، وإنما تعبير عن نقص في الحساسية فهل لايحظى المقبل من الحياة بنصيب من الواقعية لمجرد أنه مستقبل؟ والأهمية التي تضفونها على بعض الأقدار التي تعصف بكم، لأنكم لم تتفهموا أنها لم تعد بنفس الحدة، ألا تأتي من ذكاء غافل، وربما مُعَدّ بطريقةٍ سيئة بواسطة عقيدة لاتألو جهداً في أن تزرع فيكم الاعتقادَ بتحققكم الشخصي؟ لقد صنعتم من حياتكم قُرباناً للقوة. فأنتم تخلطون بينكم وبين أفعالكم، وحتى في فكركم فأنتم ما زلتم بعدُ تفهمون بصعوبةٍ أن الوجودَ ليس مشروطاً بالفعل، وأن العالم يغيركم بأكثر مما تغيرونه...

كل شيء واضح فيما نسعى نحن إليه ونحن نريد، سواء في الفعل أو في الفكر، أن تكون لنا القدرةُ، بإيعازٍ من حساسيتنا واللحظة، على الاختيار بين المظاهر المتوالية للأشياء التي يعطيها الزمن. فهذه هي إمكانية التغيير الدائمة التي تَنشُر على الصين سَلطَنَتها الغامضة والمتعددة ؛ والتي تأتي منها تلك الرجفة الجليلة

التي نبحث عنها. فكم من التجار رأيتهم يقامرون ضد واحدٍ من مستخدميهم بكل تجارتهم، فيخسرون ويغيرون مواقعهم بمواقعَ غُرَمائهم ؛ ثم بعد ذلك بوقتٍ طويل، يغامرون ثانية، فيكسبون ويستعيدون الزِمام الذي فقدوه! ونادراً ما تتحقق من أن على وجوههم لمحةَ ندم. فليس بمقدرِ أحدٍ أن يعطي أهمية للحظات المؤلمة لحياة في الغيب، لكنه يشعر من خلال هذه اللحظات بالواقع وبأن هذا الواقع ربما يأتي عليه حين يزينه بالثروة.

لقد أثقلتُم الدنيا قلقاً. وياله من شكلٍ مأسويّ أسبغتُمُوه على الموت! إن رؤية مقبرةٍ في مدينة أوربيةٍ كبيرة تُوقظ فيّ مشاعرَ شنيعة.فيأتيني في الرؤيا هؤلاء الأحياء الذين نراهم يعيشون بيننا اليوم، وهم في سِياج الموتي حيث يهيمن طائرُ الصمتِ على جمعِ القبور المتآلفة...

في أرض الموتى هذه المتشربة بالرقة، عاطفتان فقط نشعر بهما: الألم والخشية. وفي كتاباتكم الشعبية، نجد أن الموتَ هو نفسه رمزُ الرعب. ولَكُم تبدو بعيدة عنكم الشياطين الخضراء والصفراء التي تَعِجُّ بها النكاتُ العديدة لدينا، وتلك التنانين التي تُولي ظهرها عندما نُرَبِّتُ عليها وكل هذا الحشد من الوحوش الرؤومة التي يتجرجر خلفها، بغير أن نشوش على جلال الموت الآسيوي.

بِمَ أن هذا النفوذ الثابت للموت، الذي اعتقد الأوربيون أنهم قد فطنوا إليه في الصين ليس سوى وهم وجنون. فإن القبور التي لاتُحصىَ التي تركناها، بغير تَصَورٍ للدَنَس، تأوي إليها الأرانب، تُقَوّي فينا إحساساً بأنه لايوجد مشترك مع شعوركم بالموت. فهذا

الشعور عندنا عاطفة رزينة وهو كذلك وعي بأن الكائن لاينحصر في ذاته، وبأنه وعاء للوجود أكثر منه وسيلة للفعل. إن كلاً منا يُكرّمُ موتاه، والموتى، هم أشبه برموزِ قوةٍ تغمرنا، وهذه القوة هي أحد أنماط الحياة، ولو أنه غير معروف عنها سوى وجودها. لكن هذا الوجود هو ما نشعر به. فهي تهيمن علينا وتشكلنا بغير أن نستطيع الإمساك بها. إنها حالة بنا كما لو أننا بشر، وكما لو أنكم مهندسون، حتى في الألوهية...

إن الزمن هو ما تصنعونه به، ونحن مَن يصنعنا الزمن.



باريس.

السيد العزيز،

لقد اتبعتُ نصائحك، وقد عدتُ من روما حيث قضيت بها وقتا طويلا بعض الشيء. ولقد تحققتُ فعلاً من جاذبية هذه الحديقة الجميلة لبيع العاديّات المهمَلة، التي تُقدِّم فيها آخرُ الآلهة اللاتينية هذا التناسق الجاف إلى حد ما والذي تسمونه الأسلوب. ولكن مع ذلك قد توارت فيها، على نحوٍ خفيٍّ بعض الموضوعات شديدة القوة للتأمل المسترق لأوربا، فهل تعترف لي بذلك؟ إنني لم أجد في روما هذه الروح التي تغمر عدداً من المدن الفريدة، والتي ذهب بي غيابها إلى حد التعاسة. ومع أنني تعلمتُ، شيئاً فشيئا أن أنفعل بهذا المشهد الطبيعي الذي حاولتْ فيه التذكارات الكلاسيكية عبثاً أن تنظم فضاءً لا متناهيا، حيث أحاطَ بالمعابد فناءٌ من الأعمدة المهشمة والكنائس البائسة التي زاحمت الروائع. إلّا أنني لم أستطع أن أتعلم أن أجد كنه الشعور، الذي يصنع بالنسبة لنا، قيمة هذه الأماكن التي خَلّفَها لنا الماضي.

لقد فتّشتُ عن روحِ روما العجوز، تحت آلاف الأشكال الشهوانية التي تركتها لنا ثلاثة قرون، كما لو كنت أُفتشُ عن جِذعٍ أثريّ تحت أنسجةٍ ثمينة. لقد جئتُ إلى هنا مدعواً من

انتصارِ العقول السالفة على أوهامها: فلم أجد أولاً سوى المتعة التي يجلبها الماء المثلج والأشكال التي توزعه في الطرقات التي كَلّست الشمسُ أحجارَها العجوزَ فقد كان صوتها المليء بالعظمة القاتمةَ محتجباً وراءَ أهازيجِ النوافير. تلك النوافير التي قرأتُ بالكتب فيما مضى عن سحرها، لقد طغى التوفز الشهواني لآلهتكم وصدفياتكم البرونزيةَ على المدينة المقدسة، وكل شارع كان يخفي في ظله الظل الحسي لبرنان.

لقد جعلتنى بعض اللوحات الحائطية التي ترسم أرض قرطاج أقل إحباطا ربما وأقل افتتانا مما جعلتني عليه هذه المجموعة من الأروقة والمنقوشات الخشبية، والأعمدة المزهرة والحوانيت، ومما جعلني فيه هذا الفراغ الكبير الذي تظهر فيه خرائب الساحة على خلفية من البيوت الرومانتيكية التي تعلوها القباب المزينة. فمن قصر أدريان مروراً بمحلات العاديّات، التي بداخلها على طول التبَر، كمية من التحف المشوّهة إلى محلات الحلوى بمراياها المزينة التي تنعكس عليها رموز الإرادة الحجرية كل هذا يتحد لكي يجعل من هذه المدينة التي أخذتم منها شرائعكم صورةً للفوضى. والزمن اللاحق على هذه الأحجار قد تسلّى بأن أضفى على مجدها الوحشيّ الرونقَ البحرَ متوسطي. وفجأة، أمام هذه اللعبة الواضحة تماما لزمنٍ غربيّ وفَكِه، رأيتُ ذكرى روما تختلطُ بذكرى الإسكندرية. العظمة مع الفظاظَة. وتماثيل الآلهة في شمس الصباح مع الجماهير العنيقة البيضاء بالميادين الفسيحة. ومع ذلك فبالقرب من الأقواس التي تكسوها الطحالب شبه السوداء، والأعمدة المنسية في وسط الميادين الصغيرة غير المرصوفة حيث ينام الناس من العامة في الظل، وبالقرب من مسرح الكوليزيه

ديزرت، حدث أنني سمعتُ أصداءَ نداء الامبراطورية التي سمعها الكثيرون منكم هنا. وكما لونّت الشمسُ المحتجبة لبضع ثوانٍ البحرَ غيرَ المعتدل، فقد جمعَتْ شتاتَ أفكاري المبعثرة.

كنتُ أتساءل، ما فائدة التعاظم أمام القوة إذا لم يكن المرء امبراطوراً؟ هذا الشيء المزّوق كامبراطورية كبيرة، العابث كانهيارها. فهذه البشرية تعلم أن تتمسكن حتى تتمكن. وياله من درس جنود غلاظ! قائم في إطار ماهو مقبول من كل الأجناس، متجسد في المثال الذي يسلطن هنا بعض الأشياء المتدنية والخشنة. وحتى يحني البشر هامتهم إلى هذا الحد الذي يثير سُخطي... فإن البطش هو الذي يفعل هذا، وسيداً، أعلى من هالاته، يُدانُ له بالطاعة. إني أظن أن هناك بعض الضعف في وهج تيمورلنك أو الإسكندر، وهؤلاء البرابرة الآخرين. وإني لأفضل عنه الظلال الامبراطورية، التي احترمتْ الواحدة بعد الآخرى على مرّ التاريخ نموذجَ الشجاعة المقننة. فإذا كان عليّ أن أحني هامتي أمام النظام، فإني أريد أن يكون هذا النظام من أجلي، لا أن أكون أنا من أجله.

عدتُ، مع الابتسامة الحزينة التي استدعتها هذه الأفكار، عبر الشوارع الضيقة التي فرش فيها باعة البطيخ بضاعتهم خارجاً. متفكراً في هذه الخاصية المريرة للقوة التي قضت لكم على الروح الرومانية كلها في تصدع سلطانها لمدة قرن وأعادت بناء المناظير على أنواع بليدة من التراص. وفكرت ثانية، في أني أفهم جيدا ما تقوله هذه الشذرات: إن الذي يضحي يشارك في عظمة السبب الذي يضحي من أجله. ولكنني لستُ أرى هذا السبب

عظيماً إلا بقدر ما به من تضحية. إنه في ذاته بلا عبقرية. والرجال الذين قادهم نحوه قد نُذروا للموت، الذي أخذوا منه أو أعطوه. فهل للبربرية أن تكون أقل همجية من ذلك، لكي تكون ذات جبروت؟

إن هذه الخرائب لايجول في خاطري معها سوى نبلها المدنس والمشوش. وآهاً لسهول سمرقند الجدباء، التي يغمرها اسم بحضوره، ومئذنتان سوداوتان تنتصبان في سماء صافية تصرخان بأشد المشاعر مأسوية!

واأسفاه! إني أريد العثور هنا على القوة التي يحتاج إليها جنسي على نحو مؤلم، وأمام أجمل صورها، لم أستطع أن أخفي تقززي...

❖

باريس.

السيد العزيز،

أود من جديد أن أحدثك عن روما. روما وأثينا، فمنذ تركتهما وهما تعيشان داخلي، تنطقان بحديث آخر غير هذا الذي سمعته من قبل، لتجبرانني على الإنصات إليهما ثانية. ذلك أن ما أراه في أوربا، هو أقرب ما يكون إلى إحياء الصور التي في ذاكرتي. وأنا لم أحدثك عن أثينا لأنني لم أجد فيها سوى الريبة. وما أردت استخلاصه قد تحدد بداخلي ؛ وهو ما توقعته. في المدينة الجديدة، كان سحر بعض شجيرات الفلفل هو الذي لطف بالكاد من الكدر الذي سببته لي النصُبُ التذكارية الحديثة.

وفي المدينة الأثرية انتظرتُ أن تحل بي حالة من الصفاء الأعجمي، فالمرشد الذي أراني إياها رمزاً لشعب مكلل بالغار فوق حوائط قلعة، قد شوشني ؛ ولكن، من المحتمل ألا تكون هذه الفكرة قائمة بين الأفكار التي حصلتها خلال هذه الرحلة، إلا على صلة غامضة، لم تتعلق بهذه الأعمدة المهشمة وهذا الأفق الصارم، ولم تذكرني بمتحف الأكروبول الصغير، الأليف والهادىء، الذي أراني فيه عسكري يونانيّ عجوز بعضَ الأحجارِ هي أفضل رمز عرفته اليوم للغرب. لقد كان يحبها. وكان يتحسسها كأحد هواة

جمع التحف المتواضعين. ولكنه كان يفضل عليها زيتونة الربة التي باعتني غُصناً منها مقابل ثمن زهيد.

وبمَ أنه لايوجد جمال أبدي، فسوف يُواري الزمنُ قريباً بغير شك، موكبَ هذه الظلال التي كانت نقية وصارت فاتنة. ولكنه صحيح كذلك أن صفوة عقولكم يأتون إلى هنا بحثاً عن صورة نقية لأنفسهم. إنه مقدم النفوس الطيبة. المضيئة والمتلهفة لمعرفة ذاتها، فأي اعتبار أروع من هذا يمكن عطاؤه للموتى؟

ومهما يكن من أمر فقر هذا التناسق، والحدود الإنسانية لهذا النقاء، فمنذ بضع لحظات. وعند تذكري لأنني شاهدت، ضمن الأشكال التي رأيتها، بالمتحف المتواضع بالنسبة للمتاحف التي رأيتها عبر العالم، رأس شاب بعينين مفتوحتين شدتني إليها كأنها رمز للعبقرية الإغريقية، بإيعازها العميق: وهو قياس كل شيء بمدار وحدة حياة إنسانية ما. لقد تساءلتُ، لماذا لم تحفروا تحت هذا الوجه المجهول اسم أوديب؟ إن تاريخ أوديب هو تاريخ المعركة مع أبي الهول بكل ما لديكم من قدرات. إن الوحش، سواء كان تنيناً، أو أبا هول، أو ثوراً مُجَنّحاً، فهو واحد من مرايا الشرق ؛ ولكنه أيضا من هذا الجانب من الروح الذي حاول إخضاع اليونان، وقد عاود الظهور عبر القرون، في كل مرة طلب فيها البشر من الحياة أكثر مما يمكن أن يعطيهم الفكر. لقد مات في طيبة، وأُعيدَت ولادتُه بمصرَ والسودان، وعلى تخوم الهند حيث تغلب بدوره على هذا الأوديب المحزن: الإسكندر...

حياة واحدة لي، أنا الآسيوي. وكل العبقرية الإغريقية تكمن في هذه الفكرة، وفي الحساسية القائمة عليها. وهنا يوجد فعلٌ

إيماني. إن الإغريقي يؤمن بتميز الإنسان في العالم، كما يؤمن المسيحي باتحاد الإنسان بالله، كما نؤمن نحن باتحاد الإنسان بالعالم، وكلٌ ينتظمُ انطلاقاً من هذا، من السمة الخاصة لآلهته، تلك التي تهيمن عليها لالتجعل منها آلهة إنسانية، وإنما آلهة شخصية. إن أهمية الإنسان، والاكتمال الذي يتحسسه الإغريقي، نحن نعرفه مثله، ولكننا أدركنا العالم في مجموعه، وصرنا حسّاسين للقُوَى التي تكونه أكثر مما نحن حسّاسين للنشاطات الإنسانية ؛ وقد هيمنتْ فكرة النوع الإنساني في روحنا على فكرة الإنسان الفرد. لقد أدرك الإغريق الإنسان كفرد، ككينونة تولد وتموت ومسيرة الحياة هذه، من الميلاد إلى الموت، تكتسب أهميتها في فكرنا وحساسيتنا، من أقسامها: الشباب، والنضوج والشيخوخة، وهذه الأقسام التي لا وجود لها في فكركم وحساسيتكم، صارت لفكرنا وحساسيتنا هي العناصر الأساسية للكون. وفي الوعي، وأكاد أقول هذا الشعور بالوجود كجزيء من الكون، الذي يسبق على نحو جَبريّ المبدأ المجردَ تماماً للإنسان، فإن هذه العناصر تُقيم مقام الوعي بالوجود وجوداً حياً، كلياً ومتميزاً، فوق كوكبٍ أرضيّ يساعد على ذلك، ليس فيه من صور مشبعة بالعاطفة سوى صور البشر والبحر وهذه حساسية خاصة فضلاً عن أن تكون فكرا، يأتي من هذه المشاهد الطبيعية شبه الجرداء ليخضع كل شيء عندكم. إن الغرب قد ولد هنا، مع الوجه القاسي لمينرڤا، بأسلحته، وندبات مستقبله المعتوه والحمية التي تتصاعد فينا تُعدّ، كما تقولون، لإضاعتنا. فهذه التي تحرقكم تصرخ. وإن من الحكمة تركها تستريح في سلام، هذه التنانين العظيمة التي تنام تحت الأرض، هكذا يعلموننا سحرة بلادي...

فبعد موت أبي الهول، كان على أوديبَ أن يحاربَ نفسه.

روما. عندما يعثر المرء على العلامات الهيلينية هنا، لايجد مقبرةً امبراطورية، بقدر ما يجد المكان الفريد الذي يعكس أكبر حيز من الأسف الذي استكان بهدوء إلى القوة فإذا كان للفرد أن يتعالى هنا أو يسيطر، فإن التلال السبعة تشير له لكي ينحني فهل يمكن فهم حضارتكم وإيقاعها بغير الاستماع إلى الحوار بين الصوت الشره والصوت المتعجرف الصاعدين من هاتين الأرضين المليئتين بالرخام المهشم؟

لقد سَرّني أن أرى في المدينة بعضَ الحراس الرسميين المرتدين للزي الروماني التقليدي القديم، الذين دَرّبوا كل ذكائهم على التصويب ببلطة قاطعة على حُزمَةٍ من السيقان، وعددا من الكنائس التي جُلِبَت. أعمدتها الداخلية من المعابد الأثرية. ولقد سمعتُ بها صوتين مسيحيين: أحدهما يغني المجد لله، والآخر يسائل بغير أن يسمع وهذا الأخير لم يهتم أبداً بأن يحيط الإنسانَ وعياً بأيٍّ من هذه القوى، التي أكدت القطيعة بينه وبين العالم -من الجبروت الى الشهوة- ؛ وبتردداته، وحسراته، في المعركة الداخلية التي تؤلف قوامَ حياته، بل نسب إليه كل الأهمية والقدرة الفائقة: ووَحّدَه بالله. إن الشرقّي اللامسؤول يستمد قوته من التعالي على صراعٍ لايراه مصيرياً. والمسيحيّ لا يستطيع أبداً أن ينفصل ؛ فالله وهو مرتبطان الواحد بالآخر من الآن وإلى الأبد، وليس العالم سوى الهباء الذي يزوق صراعهما. وفي العذاب المثقف للإغريق، مع القلق الخالص الذي لاقُوهُ في محاولة أن يعطوا للحياةِ طابعاً إنسانياً. ينطوي عذابكم، وتَخَبُّطكم الأعمى، لأن

الله قد تكَشَّفَ لكم عبر الانفعالات العنيفة وبحكم هذه الانفعالات تتطلعون نحوه. إن الله، الرؤوف... هو بالنسبة لكم حالة ؛ وهو بالنسبة لنا إيقاع.

❖

منه إليه
في إجابةٍ على خطاب
غيرِ ذي أهميةٍ

باريس.

السيد العزيز،

لا، ليست بالعذابات وحدها، إنها بكل العواطف التي تسبغ اعتقاداتنا الشعبيةُ عليها الحياةَ. فهذه الأشكال الكدرة التي تصعد، في المساء من حقل الأرز،أو تغني خلف الأسماك الخزفية التي تزين أسقف المعابد ؛ هذه التي تصطحبك، كالكلاب الشرسة الوفية، على طول الطرق الناشعة، هي العواطف. تتولد فيك، وتغادرك لتلحق، عبر العالم، بأخواتها المختلفات والمستعصيات على العَدّ. وكَم مِن هذه القرائن تتهامس معاً فوق أرض الخريف لتُحدثَ الجلبة التي تعلو الأشجار الغارقة في الضباب، بينما تُسقطُ قطرات الماء الثقيلة أوراقَ المانجو الملأى بالمطر واحدةً فواحدة.

إنني لا أستطيع الاندهاش من ضعف البشر من بني جنسك إزاء عواطفهم. فطريقتهم في الرؤية، والتعامل مع الزمن، والفكرة التي صنعوها لأنفسهم، كل هذا يدفعهم بعيدا عنها. إن الحب يهمني أكثر من أي عاطفة أخرى. فقد وجدت فيه إنسانيتي، وأحبّ أكثر أن أفعل ذلك اليوم ؛ وبما أن النفور الذي أكنُّه لأوربا لا يدافع عني دوماً ضدها فقد أصبحتُ متطلعاً أنا الآخر، لأن

أقتفي أثر صورتي، التي كنت قد رفضتها. فكيف أجد نفسي بغير أن أنظر إليك؟ وحين أراك تضيع بعض الشيء في الحبّ يغمرني الأسف لعدم قدرتي على اللحاق بك ؛ فمن أجل أن يضيع المرء لابد له من الإيمان بذاته.

يخيل لي أنكم تعطون لهذا الذي لايعدو أن يكون اتفاقا شبه عام المسمى بالواقع أهمية مفرطة، إن العالم قد خُلِقَ بمقتضى هذا الاتفاق، ولذا فأنتم تتصالحون معه لأن إنكاره يتطلب ممن يحاول ذلك شجاعة فائقة، تكلفكم الكثير والعاطفة تبدو في نظامكم الاجتماعي، كما لو أنها صدْعٌ مستقيم فأيّاً ما كان جنسنا، نحن نعلم كبشر، أننا نعيش في عوالم مُعَدّةٍ سلفاً، لكن نوعاً من السرور الوحشي، يغزونا جميعا عند نداء حاجاتنا الأساسية يُرينا ما بها من استبداد. والإنسان العاطفيّ في خلاف مع العالم الذي أدركه، كما لو أن هذا العالم المفاجىء له والّذي توقّعه لن تغير فيه العاطفة شيئا والإنسان الذي يرغب في الحب، يرغب في الهرب، وهذا نادر ؛ لكن المرأة أو الرجل الذي يرغب في أن يكون هو موضوعا للحب، ويرغب في أن يضيع كيانٌ آخر فيه، يبدو لي أن انصياعه لهذا مُطيع لضرورة قاهرة للغاية بما يجعلني أصل إلى القناعة الآتية:

إن ما يتمركز في الإنسان الأوربي، مهيمناً على التوجهات العظمى لحياته، هو عبث في جوهره فهل لا تعتقد بهذا؟

لقد توقفتُ بعض الوقت عن الكتابة. وهذا السؤال يُلحّ عليّ. لأي شيء إذن تريدون التماهي فيما تسمونه روح المرأة؟ فبمَ أنهن كن مسيحيات قد ضحين بعقيدتهن ؛ وصرن بعد ذلك يضحين

برأيهن، وأصبحن اليوم يعانين أكثر من هذه الصراعات، بمَ أنه المستحيل لهن أن يضحين بحساسيتهن ؛ ولو أن هذه الحساسية فيما يبدو ضعيفة في أوربا...

إنني أعتقد بأن العواطف التي تخبُرُونها لا تنُظّم عالمكم بما يكفي لحسابها حيث أنها لم تفتتكم. فهي لا تؤثر على القيم، ولكن على كثافة وجود الأشياء. ولاتوجد وصفة علاجية لذلك سوى في مملكة الروح، وهنا بالضبط تقع مأساتكم. فليس يوجد في عواطفكم، شيء كالحب، يجعلكم تربتون على الحيوان قبيل إيقاظه. وعندما أقسرُ نفسي على أن أفصل بين عذابكم وبين موضوع الغزو، يبدو لَي أحيانا أنني أشارك في بحثٍ عن العذاب الخالص. ولا يغيب عن ذهني أن عقيدتكم علمتكم أنْ تبحثوا في أنفسكم عن العالم القائم على الوعي المعظّم لفوضاها الأساسية...

كل هذا للأسف ليس سوى محاولات بحث. ولقد تذكرت عن الصين بعض الاختلافات، وبغير محاباة كبيرة، هذا فحواها مع بعض التأملات:

إن المرأةَ موضوعٌ جدير بالاهتمام، حساس، كالعمل الفني. جميل، ومُقدَّرٌ عليه بعض الواجبات. كأن يكون عليها أن تكون مخصبة ووفية، إن كانَ عليها أن تكون زوجة، جميلة إن كان عليها أن تكون محظية.خبيرة إن كان عليها أن تكون عاهرة. أما أن تكون شهوانية، فأمرٌ لم يعد مرغوباً ؛ فيكفي أن تكون حاذقة في خدمة زوجها أو أن تبيح لحبيبها التسليات المتنوعةَ اللذة. إن فكرتنا عنها تمنعنا من أن نُضفي عليها شخصيةً خاصة. فكيف يمكن لشاب أن يحب فتاة لم يرها وخطبها له أبواه في سن

العاشرة؟ لذا فإن العاطفةَ التي يمكن لامرأة أن تلهمها لرجل، يعبر عنها كتابنا دائما باعتبارها خارج الزواج، بما أنها ناتجة عن عملية سحرية. وسواء بالنسبة لمن يكابد من الإذعان لها أو لمن يناضلها فهي دائما مسالمة. وهي أشبه ما تكون بالمرض القاتل، حاوية، ولا أمل فيها. فلا التملك، ولا يقين المعاشرة بقادرين على إضعافها ؛ فليس في مقدور البشر أن يتفادوا أقدار الجروح الأبدية...

وأدوار المحظية والعاهرة تتطلب أحيانا ذكاء، وتتطلب دائماً المهارة والعناية ؛ لكن أية سمة فردية هنا تعد مهارة خاصة. إن بيوت اللهو المترفة التي نراها في أوربا تدهشنا دائما: فالقليل من الأماكن التي احتفظت بها أوربا البربرية تجعلنا من ناحيتها حساسين لهذه النقطة: فبين كل الأفكار التي يحملها الإنسان هل توجد فكرة قادرة على فضح حساسيته السرية غير فكرة المتعة؟ إنني لا أجهل أنه سيكون شيئا يدعو للسخرية محاكمة أوربا على هذه الأشياء ؛ ومع ذلك فإن الاهتمام بالنساء والرغبة فيهن، فقط لكونهن جميلات، دليل صارخ على الفظاظة! فليس بالصين عاهرة على درجة من القيمة ليست متعلمة وقادرة على أن تزين اللذات التي تمنحها للرجل بتلك التي يتطلبها العقل. إنها تقرأ وتقرأ دائما ؛ لكن هناك الجيد والرديء من الكتب، كما أن هناك الجميل والحقير من الزخرفات. ولابد للعاهرة أن تكون متعلمة لكي يكون لها قيمة، وحاذقة لكي تحتفظ بهذه القيمة. وليس فيهن مَن ليست لها سمة خاصة إلى جانب هذه الثقافة وهذا الحذق، فهن تتشابهن من حيث الأنواع مع العاملين بالفن. إن الفضائلَ التي ننشدها في النساء هي نفسها التي تسرنا لدى رجل ؛ والعاهرات اللائي يشتد عليهنَ الطلب هن اللائي تنحنين دائما أمام الغلمان الصغار واللائي

تم إعدادهن عبر اثنتي عشر أو خمسة عشر عاما من الدراسة...

إن من البديهي أن تَمَسّ امرأةٌ ما شغافَ نفسك لأنها متفردة. فكيف باستطاعتك تمييزُ ما إذا كنت تميل إلى أن تحب هذه المرأة وليس امرأة أخرى؟ إن هذا ليس بسبب الجمال: فالنساء القبيحات يجدن أيضاً مَن يحبهن. (فجمال المرأة، فضلا عن ذلك، ربما كان فرصة للزهو، ولكنه أبدا لن يكون وعداً بمتعة حسية) فالشيء الوحيد الذي يمثل وعداً حقيقيا هو تعابير الوجه، والصوت، والجسد. فهي تحقق كل الإغراءات المباشرة، وحتى هذه التي ستمحوها الأفعال بعد ذلك، والنفس المعروفة لا تسمح لوجه بأن ينطق بأكثر من وعود منسية وهي تؤثر في الإنسان عندما تعرض عليه المشاعر التي هو بحاجة إليها أو يرغب فيها ؛ من اللذة إلى المكابدة، فيُستَثار لها كما تُستثار جميعا تقريبا، وخلاف ذلك لايكون إلا تعبيراً عن حالاتٍ من الضعف نادرة وخفية، يكون فعلها فينا أاشدّ غَوراً.

إن الفتيات الشابات والنسوة الشابات الصينيات لا يحاولن قط أن يتميزن بتعبير خاص. فتصفيف شعرهن، وخضابهن، وخَفَرُ أعينهن أشياء مشتركة بينهن، بل إن غيابهن ربما كان أكثر من حضورهن. فقط العاهرات من المستوى الرفيع، كالجيشا في اليابان، يظهرن أحيانا. كذلك فهن بطلات كل حكاياتنا العاطفية. ومنذ أن تم قبول النساء بالجامعات ورفضهن للتقاليد، فإن طلابنا أبدوا اهتماماً فائقا بهذا الشعور الذي أسميتموه الحب. وهم يرون بأسفٍ أنكم تخلطون بينه وبين ما يتعلق به من رغبات جنسية، مما يجعلُ ما تقولونه في هذا الشأن يبدو لهم طافحاً بالجهل

والسذاجة، ذلك لأنهم يجهلون التأثيراتِ الواضحةَ التي عرفتم كيف تستخلصونها من الخيال.

إن الصينيين الشباب الذين يقرأون كتبكم تصيبهم الدهشة أولاً للاهتمام الذي تظهرونه لفهم أحاسيس النساء. وفضلا عن أن جهداً كهذا يظل في رأيهم، أهلاً للازدراء، فهو بالضرورة جَهدٌ يُفضي إلى هباء. فالرجل والمرأة ينحدران من نوعين مختلفين. كيف تفكر أنتَ في المؤلف الذي يصف لكَ أحاسيسَ طائرٍ؟ إنه يقدم لك أحاسيسه هو مشوهة. وهذا هو ما ما نفكر به بالنسبة للكاتب الذي يحدثنا عن أحاسيس المرأة. رغم ذلك، ومن هذه المحاولة تأتي قوة الأوربيين. يبدو أنكم تأخذون بيد المرأة لتضعونها على أكتافكم ؛ فهي تهمكم لأنها تأسركم، ولكنكم أنتم الذين تمكنونها من أسركم. وفي إطار رغبتكم في أن تفهموها، فإنكم تحققون هويتكم فيها.

وتَحضُرُني بعض أقوالٍ لصديقك (ج. أ) وكان عائداً من سوريا. وتحدثنا عن النساء، حيث أنني منذ عدة أيام، أفكر فيهن باستمرار قال لي «لقد فاجَأتَني الاستثارات التي أيقظتها داخلي، في أول الأقطار الإسلامية التي زرتها. المحجبات اللائي رأيتهن يسرن متمهلات في الشارع، يتبعهن خدمهن ؛ كان ظلهن يتقدمهن بطيئاً على سورٍ عالٍ شرعَ في السماء خطاً منحنياً من الشرفات الحمراء. ودفعني الفضول لتحليل الاضطراب الحسي الذي سببته داخلي الطريقة التي وضعن بها خُمُرهن على وجوههن. وأعتقد أنني تمكنت من تلطيف حدة الأحاسيس التي أسبغتها عليّ كلُّ واحدةٍ منهن. لكن هذه الأحاسيس التي خبرتها، قد

تحورتْ: فهي لم تَعُد الأحاسيس التي بعثنها، ولكنها الأحاسيس التي تبعثها امرأة عرفتْ أحاسيسَ الرجال، وهي أحاسيس رجل تحول دفعةً واحدة لامرأة...» وإني لأجد بلا توقف هذا التناقض بين الموضوع والشكل الذي يمسك بحساسيتكم التي لطف من حدّتها هو بأن أعاد رسم أشكال العالم وَوَلّى هارباً إلى الفكر. إن الحَب الغربي، يستمد قوته وتعقيده، من الضرورة التي تتمثلونها في أنفسكم، طَواعيةً أو غير ذلك، للمرأة التي تحبونها، متصلة مع الاتحاد المتضمن فيها بين العاطفة الرقيقة والمتعة الجنسية. وإن المرء لا يتخذ أبداً نموذجاً للحياة يتواطأ عليه بغير صراع.

إنني أنتظر إجابتك بتطلع كبير، وكلي أسف لأنه لا يوجد في اللغة الفرنسية كلمة تعبر عن هذه الفكرة بغير السقوط قليلا في معنى التذلل.

❖

من أ .د.إلى لينغ

صديقي العزيز،

إن الأهمية التي كرسنا أنفسنا لنعطيها لواقعـ (نا) ليست بالقطع سوى إحدى الوسائل التي يقوم بها العقل ليُؤَمِّنَ الدفاعَ عن نفسه. بم أن التأكيدات على هذا تؤيدنا بأكثر مما تجعلنا غير واضحين. فالبشر، لم يقنعوا أبدا في بحثهم عن حدود قدراتهم، لعدة آلافٍ من السنين سوى بتجريب هذا البحث، لقد وجدوه في العالم، وفي الله. وحاولْ الانتباهَ لأقوال أولئك الذين رأيتهم يبحثون داخل أنفسهم.

بالقبول بمبدأ اللاوعي وتعليق أهمية فائقة عليه، حَرَمَتْ أوربا نفسها من أفضل أسلحتها. فالعبث، العبث الباطل المتعلق بنا تعلق الثعبان بشجرة الخير والشر، لم يختفِ كليةً أبدا، ونحن نراه يُعدُّ ألعابه الأكثر إغواءً بالمشاركة المخلصَة لإرادتنا. فبقدرها نحَاكم غيرنا باعتيادية على أفعاله الأنانية، لا نحاكم أنفسنا؛ والعالم الواقعي، الخاضع للتحكم والإحصاء، ليس سوى هذا الذي يتحرك فيه البشر الآخرون. إن الهواجس ملازمة لعالمنا عبر سلسلة انتصاراته. ويضع لحظات من الوحدة والملل كافية لجعلنا نقع، في أنفسنا، على الذكرى السقيمة للأسلحة اللامعة: فالمجد الفائق

لمآسي التاريخ والفن، يكمن في التلاعب اليومي على نحوٍ غائر بالأعداد التي لا تُحصَى من حالات الوعي المعتم. وبما أن الروح الغربية هنا: في تخيلات الحلم هذه... فإن هذه الألعاب التي يبدو معها العبث فظيعا إذا لم يكن مشتركا، تترك في أنفسنا آثارا لها تقريباً قوةُ الذكريات. إن المقل يُعطي فكرةَ الأمة: لكن الذي يُحدثُ وحدتها الشعورية هو الهاجس المشترك. فإخوتنا هم هؤلاء الذينَ عاشوا طفولتهم على إيقاع أشعار الفروسية والأساطير التي هيمنت على طفولتنا. لقد أحسسنا جميعا ببرودة وغمام صباح أوسترليتز. وانفعال ذلك المساء الطويل المؤلم حيث حمل البعض، للمرة الأولى، أرغفةَ السرخس في فرساي المثقلة بالصمت. وصور كهذه لابد لها من بشرٍ بيضٍ لكي تعطيهم ذاتاً قومية.

إن القراءة، والعَروض، عند الناس الذين بلا ثقافة، هي مصادر الحيوات المتخيلة. ولا يوجد شيء أقل من أن يحظى بالاهتمام سوى الرغبة في المعرفة. والغرب، الذي يجهل الأفيون، عرف الصحافة. وصراع الطموحات المنتصرة أو المقهورة يوماً ما: هو صحيفة. فأي عالم لم يؤججه هذا الصراع ولم يُزِغ عينيه خلف حدقاتها! هذا هو ما يجعل تحققات البشر من جنسنا تحققات مسورة. لاشيء يدوي فيها بالصوت الذي ننتظر قدومه. إنك تظن، ياصديقي العزيز، بأنه لا يوجد لدينا الإنسان، الذي لم تقهره أوربا. وذلك ضرب من الاستسهال...

هل أنت ممن يتذوّق الهزل؟ اذهب إلى السينما، إن عَرْضها المحاط بالصمت وإيقاعها السريع لقادران بشكل خاص على التأثير في خيالنا. انظر إلى الناس الخارجين بعد انتهاء العَرض:

سوف تجد أفعالهم متأثرة بأفعال الشخصيات التي شاهدوها. لاحظ كيف يعبرون الشوارع بعد ذلك بطريقة بطولية! ففي روح الأوربيين،تقبع، ياصديقي العزيز. اسطوانات فارغة. وبعض الحركات التي تؤثر في حساسيتنا على نحو نشط، تنحفر فيها. وهي التي تتحفز بها رغبتنا أو خواؤنا ويبدأ الحيوان نعيقه المسرحي. فنادراً ما تعطينا ثقافتنا أو تزين لنا متعة أن نكون متلبسين بأشباح عشيقاتنا الأثيرات...

إليك هذا العرض الفريد في بابه؛ للعته الذي يتأمل نفسه فهالة القوة التي تزين الشخصيات العظيمة توثر فينا بأكثر مما تؤثر أعمالهم -التي لاتعدو أن تكون إعداداً لهم لبلوغ حالتهم- ونحن نتخلى عنهم بمجرد أي تدخل غير ذي موضوع من الحياة الواقعية يجعلهم على خلاف معها. ففيّم تَهُمّ القديسة هيلانة، أو ما إذا كان جان سوريل قد مات شنقا!

إن الشاب الفرنسي الذي لديه ساعة فراغ جعل نابليون يتمثل تصرفات الامبراطور التي تحركت في نفسه، وهو الامبراطور. فسِيَرُ الحيوات الشهيرة توجهه، وتحني للحظةٍ خياله المطيع الذي يهيمن عليها بدوره دفعة واحدة. وفي لحظات يتأسس على هذا الجنون وضوح كامل: فالجنرال المتخيل يعد الخطط المنطقية ويدفع بالصعاب المعترضة مستعينا بالمناهج المحددة. إن الروايات الغربية تريك بوضوح شديد، فضلا عن ذلك، أن ما يمكن أن يكون هاجسا يستمد من الذكاء الوسائل للقبول بجنونه.

نحن لا نرسم صورة وهمية لأنفسنا، ولكن صورا عديدة، كثير منها ليس سوى بالكاد تخطيطات أولية، يرفضها العقل

بانزعاج حتى عندما نشارك في تحديد ملامحها. إن كل كتاب، وكل محادثة قد تصدر عنا تتجدد مع كل عاطفة جديدة، فهي تتبدل مع أحدث متعنا ومع آخر أوجاعنا. ومع هذا فإنها من القوة بمكان حيث تُخْلفُ فينا الذكريات الخفية التي تنمو حتى تشكل أحد أهم عناصرِ حياتنا: فالمعرفة التي لدينا من أنفسنا ؛ محتجبة ومتعارضة مع كل منطق، كل سعيٍ وراءها، حتى ولو كان سعي العقل نفسه، ما إن يمسك بها حتى تختفي فلا شيء محدد، حتى ذلك الذي يسمح لنا نحن بأن نتحدد. إنه نوع من القوة المستترة...

إن الأمر يبدو كما لو أننا فقط قد أخطأتنا الفرصة لننجز في العالم الواقعي أحلامنا، ونحن نحتفظ بالانطباعات المبهمة، لا لكي ننجزها، ولكن لتصور أننا كنا قادرين على فعل ذلك، فنحن نحس بتلك المقدرة في أنفسنا بنفس الطريقة التي يشعر بها الرياضيّ، الذي لا يفكر في قوته، لأنه يعرفها. وكالممثلين البائسين الذين لايريدون التخلي عن أدوار البطولة. فنحن بالنسبة لأنفسنا كائنات راقدة داخلنا، اختلطت مع الإمكانيات الساذجة لأفعالنا، وأحلامنا.

وبالنسبة لهذه المعرفة، المتزودة عبر الوعود والآمال في حياة إنسانية، بكل غنى الهذيان، فإن كينونة تأبى الانحناء: هي ذات إنسانية. وهذه الذات تعلو على أي مناقشة. إذا لم تكن أبدا موضع اعتبار، فذلك لأن التأملات التي كانت الأنا موضوعها في الغرب، ومنها تأملي، قد ارتبطت قبل كل شيء بديمومتها. إن الجميع يرتضون ضمنا بأنها، في اللحظة الراهنة، هي الشيء

المتميز بالعالم. أما الصينيين الذين تحدثت معهم في هذا الأمر فهم لا يقبلون أبدا بهذا الاختلاف ؛ وعليّ أن أعترف أنا أيضا بأني لست متأثرا به. إنني ببعض القوة التي أريد بها الحصول على معرفتي بنفسي، أشعر أنني خاضع لسلسة من الأحاسيس المضطربة التي لا أستطيع السيطرة عليها، والتي لا تعتمد إلا على خيالي وردود الأفعال التي يستدعيها. وبما أن الهاجس، الذي هو أيضا فعل، مدعوم بخيال غير فاعل يتكون من عمليات تعويضية لا إرادية. فإن لعبة العشق هنا: أن يكون الواحد نفسه والآخر، أن يعيش أحاسيسه هو الخاصة، وأن يتخيل أحاسيس الشريك. وفي السادية والمازوكية، حتى المشاعر التي تتطلب استعراضا، فإن البشر خاضعون لهذا الازدواج، الذي هو آخر وجه للقوى الكهلة للقدر المحتوم. إنها خاصية غريبة، خاصية افتراض الأحاسيس، واختبارها على هذا النحو، والأغرب من ذلك هو التمكن من لعبة كهذه. ولأن العقل يتواجد هنا: فإذا كنا نتفاعل، وقد تلبستنا هذه المشاعر، فهذا بتوجيه منه، فهي مثل الكشوف، من خصائصه سوء التقدير، ومن خصائصه أيضا دفاعنا الجمعي، وفكرة الأنا وإيعاز الاحتمالات.

هذا الدفاع ضد الإلحاح المستمر للعالم هو الصفة نفسها للعبقرية الأوربية، التي تعبر عن نفسها من خلال القناع الهيليني أو القناع المسيحي. فعندما يُسمّي لاهوتيّ كاثوليكيّ إبليسَ «أميرَ العالم» يُخَيَّلُ لي أنني أسمع صوت التماثيل الأثريةيصعد من البرونز الأسود. صفة، كما لو أنها لقبيلة في أراضينا المتشامخة، يصرخ هذا الصوت المتناوب للتعظيم ولليأس، بإيمانها بحدود قدرات الإنسان، في ضرورتها كسبب لوجودها. صفة أيضا لجنس خاضع لبرهان الفعل، وموعود لذلك بأشد الأقدار دموية.

من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

لاشيء يمكنه، أفضل من هواجسنا أن يلقي الضوء على الاختلاف الذي يفصل بين حساسياتنا. فإذا نحن حلمنا، فبالكاد لكي نطلب من أحلامنا الحكمة التي لا تعطيها لنا الحياة. الحكمة وليس المجد. «انفعالات الحلم» كتبت لي، وأجيبك: الهدوء في الحلم.

وبما أن الصيني الذي يحلم يصير حكيما. فإن أحلامه ليست مسكونة أبدا بالصور. فهو لايرى مدناً مغزوة، ولا مجداً، ولا قوة؛ وإنما يحلم بإمكانية ظهور كل شيء بشكلٍ فيه الكمال، فلا يتعلق حلمه بما هو يومي. وإذا كانت نفسه فظةً إلى حد ما فهو يحلم ببعض الاحترام.

لاشيء يجعله ينحني أمام الفعل. إنه كذلك حتى في الحلم. فشعوره بأنه محترم. ليس أبدا في تخيله بأنه في قاعة تغص بالرؤوس المنحنية أمامه. بل هو في معرفة الأشياء الخاصة التي يضيفها له الاحترام الذي يستلهمه. وقد يبدو لكم من الغرائب التي لا تستطيعون تصورها، أن الصيني، إذا جاز لي القول، يحلم بغير صور. وهذا هو الذي يجعله مرتبطاً بالقيمة وليس

بالشخصية، بالحكمة وليس بالامبراطور. لذا فإن فكرة العالم الذي لن يذهب إلى تخيله، تعبر بالنسبة له عن حقيقة العالم.

إن لكم ردحاً من الدهر تعكفون فيه على إدراك وجودكم. وبعناية، عَنوَنتُم، وصَنّفتُم، وحَدّدتُم الشخصيات التي ظهرت أمامكم، وكذا شخصيتكم. ومسلحين بأحجار الصيد الخفيفة، وبغير عصي، رُحتُم -مع قصر النظر والحماسة- تبحثون عن اختلافكم عن الآخرين. إن هذه العناية التي بدلها فنانو القرن السادس عشر، في تأطير صورهم، وهي شيء أتذوقه، ملمح من ملامح روحكم. وأحيانا وأنا وحدي، أتصفح كتاباً من الكتب التي تقدرونها بعض التقدير، متناسيا مع الشمس التي عَزّ طلابُها ذلك القلق الذي صار ملازما لي، أجدني أتمتع بتسليات لطيفة من محاولتكم طِرادَ الفرد. ومن الجهود التي تبذلونها للإمساك فيه بشيء محدد. ذلك لأنكم في محاولتكم العثور على أنفسكم، تفعلون ذلك على طريقة هؤلاء السحرة، الذين يجدون في أعقاب ندائهم على العفريت، أن الغرفة قد احتُلّتْ بأعداد لا تُحصى من الوجوه ذات القرون، فيُغمَى عليهم، ويستيقظون بعد ذلك تحت أكوام الكتب. يعانون من الآلام العظيمة في الرأس. ليس لأن الكتب قد أصابتهم بجروح أثناء سقوطها عليهم. ولكن لتذكرهم بأن العفاريت قد تشاجرت وتضاربت أثناء تزاحمها، لأن كل واحد منها أراد أن يكون هو المعني بالنداء ؛ وهو ما يغري هؤلاء السحرة البارعين بمواجهة الصعاب من جديد.

ونحن قد اجتهدنا على مر التاريخ ألاّ نقع تحت إغواء أو أسر هذا الوهم في أنفسنا. وإني أراك، ياسيدي تفكر في البوذية،

حيث أن الغربَ يُسبغ على هذه الحالة أهميةً غير قابلة للتفسير. وهنا لا يجب التفكير. فمعلمو البوذية لديهم أحيانا حالة من الصفاء مليئة بالتنوع والذكاء أثرت فيّ بأكثر مما أثرت في حالتكم، بما يجعلني أشعر نحوهم بكثير من الحماس المخلص. لكنهم يسقطون في نفس الدوائر التي تسقطون فيها. فالبحث والهروب كلاهما بلا إحساس. فأي إنسان يترك نفسه ليُقادَ بواسطة العقل لن يحيا إلا له وعبره. ولا توجد زينة مشؤومة أكثر من هذه. إن ما نريده نحن هو ألا نحصل على الوعي بأنفسنا بوصفنا أفرادا. إن عمل العقل عندنا هو في التجريب على نحو مضيء لخصوصيتنا التفتتية والاستشفاف عبر هذه الحساسية للخصوصية المماثلة للكون، ليس على الطريقة التي يعيد بها حكماؤكم بناء الحيوانات المنقرضة انطلاقاً من بعض العظام، فنحن أقرب لأن نتصور هذه الحيوانات حيةً ترعى في مشاهد طبيعية تجعلها مُقَلَّمة بتعريشات النبات العملاقة. ذلك لأن الجمال الفائق لحضارة طبيعية، هو رهافة لفطرية الأنا.

إن مبدأ العالم هذا والذي لا تعثرون عليه في أنفسكم، قد استبدلتموه بأبنية. أنتم تريدون عالما ملتحما. وبخلقكم له، تستخلصون منه حساسية خاصة، مؤطرة بدقة بالغة. من ذا الذي قال إنها تدين لعقلكم؟ إن حساسيتنا نحن تتجاوزنا في كل أجزائها. والحالة التي تميز بشكل أساسي بعض حمكائنا عن حكماء الشعوب الأخرى، لايعوزها الأخلاق أو الجمال حيث إن حساسيتهم، التي لا تعطف إلا على اكتمالها الخاص، تحقق جمالية بغير احتمالية للصراع، أما عن الأخلاق، فمن العبث فصلها عن الفنون الجميلة.

وصحيح أن بعض الغربيين قد تَلَهّوا، في كتب، بالانتقاص من قيمة فكرنا لصالح فكرهم. لكن الذين حاولوا حقا معرفة فكرنا، هؤلاء المزدرين للرموز ليجتهدوا على النحو الذي تفعله، الذين توجهوا إلينا، وفهموا سريعا أن عقلا بشريا يمكنه أن يعمل لغايات متنوعة، وأن اكتشاف العالم أمر مرغوب أكثر من غزو نظامه. قد تباعدت الأواصر شيئا فشيئا بينهم وبين نصائح التلال التوسكانية والحدائق الفرنسية.

لقد تنزهت، أنا أيضا في حدائقكم التي لا تضاهى والتي تختلط فيها التماثيل مع غروب الشمس بظلالها العظيمة الملكية أو الألوهية. إن أيديها المفتوحة تتراءى لك كأنها ترفع قرباناً ثقيلاً من الذكريات والمجد. ولقد رغب قلبكم أن يتميز في وحدة هذه الظلال التي تتمدد بهدوء كشريعة عملت لدهر طويل. آه! أي فرع سيكون جديرا بأصله، ذلك الذي يبحث عن فكره الغابر، لا يعرف بعد سوى أن يبكي موتاه الكفار؟ وعلى الرغم من جبروته الواضح، فإن الغروب الأوربي محزن وفارغ، فارغ كنفس الغازي. ففي كل التصرفات الشديدة المأساوية للبشر، لم يظهر لي من بينها على الإطلاق، ما أشد مأساوية وأشد عبثا من ذلك الذي تسائلون به ظلال أمجادكم. إن جنسا منذورا للقوة، هو جنس يائس...

ما أشد حاجتي إليك، ياالّذأت الجسد المقهور في الليل المتعب، يافكراً غير بشريٍ يتصاعد فوق وهج الحريق الهائل للعالم، و ياآسيا.

باريس.

السيد العزيز،

يوجد فينا معنى لايبدو حتى أنك خمنت إمكانية وجوده: هو معنى الحيوات الغريبة، الحيوات المختلفة على نحو جوهري عن حيواتنا. وهذا المعنى يتخلل فنّنا الشعبي وفنوننا التشكيلية إلى الحد الذي يتعسر فيه على أي كائن أن يفهم هذه الفنون بغير استنادٍ إلى هذا المعنى. إن العناية التي يراقب بها رسامونا ما يرغبون في رسمه لا تستطيع تفسير الأشكال التي أظهروها ؛ بما أننا نجد في الصور الرمزية الغزال أو الحصان على سبيل المثال، نفس الإحساس الذي يؤثر فينا في اللوحات التي تُقَدِّمُ فيها هذه الحيوانات في حالة حركة والتي تبدو كما لو أنها استمدت ما بها من قدرة على الإمتاع من تأملٍ حاذق.

إن الحيوانات أو الموضوعات التي تُقدِّمُها لك هذه الأعمال تُعَدُّ على نحوٍ ممتع باستلهام من الحكايات. وإن كنتَ تجدني الآن كَدِراً، فإن ذلك بسبب المرض الغريب الذي سببه عندكم تطور في هذه الروح، التي حدثتك عنها. فأنتم تبحثون بغير ابتسام، عن ميزات وعيوب الحيوانات ؛ فقد أغمطتم أحاسيسَ الكلبِ، وتشكّيتُم من نفاق القط. وفيما مضى، حدث أن لمحاكم، في

أوربا، أُرغمَت على إخضاع الحيوانات للإدانة. لقد كان هذا العُرفُ حسناً، ولنَ أقول كم أنا آسف لإقلاعكم عنه. فقد وجدتُ فيه رمزا، وقَدّرتُ فيه ثانيةً، معنى النظام الذي ميزكم بين الأجناس؛ وقد سَرّى ذلك عني كثيرا.

أنتم تعرفون حكاية الجمجمة، هذه الحكاية عندما يُرينا مؤلفها كيف أن الجمجمة الآدمية مهملة على حافة طريق عبر متابعته للعابر الذي دنسها، فهو لا يفعل سوى ما يفعله قاص غربي. لكنه عندما يعرض لنا، في الضوء الباهر للقمر الثلجي، هذه الكرة التي تتدحرج، وتقفز، وتسقط وترتد، ولا تني تُزُعج العابر المرتعب، نشعر بأنه يفترض بأن لهذه الرأس حياة خاصة، متشكلة بشكلها الغريب عن الأشياء الإنسانية. وهنا تبدأ عوالم الخيال.

إن الحياة التي تجسدت في صورنا والتي جعلتك تعتقد أن فننا أحَبَّ تصويرَ الفرد. جاءت، على العكس من إهمال الخواص الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف؛ وطريقة للتعرف. وهذا المبدأ عندنا مرتبط بالحساسية، ففنون آسيا فقط هي التي ابتدعت الكاريكاتير للحيوانات .. وعندما أقارن فننا بفنكم، تدو لي حساسيتكم مبعثرة، وحساسيتنا مُنظّمة تقريباً على النحو الذي تنتظم به أفكاركم. هل لك أن تتصور، وأنتَ المسيحيّ، أن يكون هناك إنسان لديه حساسية منظمة؟

عندما أقول: القط، فإن الذي يهيمن على عقلي في تلك

اللحظة ليس صورة القط ؛ وإنما بعض الحركات اللينة والصامتة التي تُميّزُ القط. إنكم تميزون نوعا من غيره من الأنواع عبر خطه التشريحي. وتمييز كهذا لايستند إلا على الموت. (يقال أن رسامكم فيما مضى، كانوا يدرسون على الجثث تصميمات وتوزيعات الجسم الإنساني).

إن مبدأ النوع يتجسد في الضرورة التي تُوَحّد بين الأشكال التي تتخذها الحياة في الكائنات التي تحتويها: أي ضرورة الحركات المعينة. وهذا هو السبب الذي يجعل هذه الضرورة لا تستطيع، بأكثر مما يستطيع الأسلوبُ، أن تتجسد في صورة ؛ فإذا أمكن للأسلوب أن يصل لهذه الغاية، فهو بسبب من إيعازها له. وهذا الإيعاز هو أعظم وسائل الفن، وتعبيره هو رمز النوع الحي، بمثل ما أن الخط التشريحيّ هو رمز للنوع الميت. إن فهم عالم الحيوات المتوالية هو الفهم الذي يسبق كل فهم ؛ ومن خلال ذلك تكتشف العالَم ألعابُ الفنان. وهذا الموضوع يطبع على نحوٍ عميق التعارضَ بين كشوفنا وكشوفكم: فمن تماثلات بديهية تذهبون أنتم إلى تماثلات أشدّ غموضاً، ونحن نذهب إلى تنوعات غير قابلة للتوافق.

كل بعد الظهر قَضَّيتُه في مشاهدة لوحات اللوفر. وفي معاناة الطريقة الخرقاء التي جَمَعَتها معاً، بحيث فَضّلتُ النظرَ لما هو خارج الشبابيك! هذا الربيع الخفيفُ الذي يمرّ على باريسَ يُبهِجُني. إن ضفاف السين تتشابه مع الصور المطبوعة على الحجر لرساميكم الرومانتيكيين: فهي مجيدة، ولطيفة، وبورجوازية في آنٍ معا ؛ فالقصورُ هنا محاطة بُتجار العصافير. ولم تجلب لي

متاحفكم أيةَ متعة. فالفنانون الكبار مسجونون فيها ؛ وهم يتجادلون معا. وهذا ليس دورَهم، لا دورنا أن نسمع جدالهم. إنني دائما مُحبَط من الأماكن لتي تفضلون فيها إشباع مَلَكةِ الحُكم على المتعة المرهفة الناتجة عن الفهم.

المتحف يعلم، للأسف! ما ينتظره الأجانب من الجمال. إنه يُحرِّض على المقارنة، ويُفضي، قبل كل شيء إلى إحساسٍ باختلاف ما يقدمه، مع أيَ عمل جديد. إنه يسيطر على الحساسية التي يعرضها، ولقد حَدَستُ، ببعض المرارة، أن أحدَ أطفالي قد تقودهُ الصدف إلى معاناة مشاعر مماثلة فيه. فالانفعالات، والمقابلات غير المتوقعة للألوان، والأحلام الجمالية التي حلم بها أسلافي في رسوماتنا تصطحبنا حتى الموت مثل التخيلات التي تعطيها اللعب للأطفال ؛ وهي لاتتميز عنها سوى بالنوعية... فكم من عصور الحكمة أوصتنا بأن نجعل من خيالنا خادماً حاضراً وجديدا دائماً لحساسيتنا! وعلى حين تتنقل التعاسة التي لاتَكِلّ للغرب، والمنتصرة انتصار التحف المعروضة، من صالةٍ لأخرى، يصَعَدُ القرينُ الشاب لنهر السين من المجرى سحاباتٍ من ضباب الحُورِ الملونة... وعلى حين أن طبيعة بلادكم، على ما يقال، تدفعكَم للتأمل ؛ فإن طبيعة تعطف بأنفسنا نحو التعاسة أو الفرح. إن بعض الخيالات المجهولة فوق الجليد أو الخطوط الحمراء لجسرٍ تستيقظ للحياة فجأة ؛ فتصبح هي الرسائل المتناغمة التي تجيء لتُحدثنا عن أنفسنا. سواءً كان واقعياً أو متصوراً، ذلك الذي يوقظ حساسيتنا أ،و يتوافق معها، فإن مشهداً طبيعياً هو إحساسٌ مُتجَلٍ. وهذه الحدائق التي نلدها هي فِخاخ تقريبا. دلائل على مشاعرنا. لها علينا قدرةٌ طاغية،

وتحولاتها تبعث فينا الاضطراب العميق. إنني أتذكر الحديقة التي نَسّقَها واحدٌ من أجدادي في القرن التاسع عشر بالقرب من أموي بمساعدة بستانيٍّ وقد اختار أبواي للذهاب إلى هذا المكان، غسقَ يومٍ من أيام نهاية الصيف، الذي يتميز بنعومة شديدة، ويتنسّمُ بالكمال، في هذا الإقليم. وقد وَصَلنا متأخرين. كان الظل الصاعد من الأرض يمحو حدود الأشكال ؛ وبدا أن صفاء الحديقة، كأنما ظل ثابتاً لا يتغير، على طول القرون. شيئاً فشيئا ، بدأ سلامٌ وَرِعٌ يُغطّي المكان حتى هيمن تماماً على كل شيء، كما لو أنه يُداوي نقاء الحديقة الذي جُرِحَ بحضورنا. كانت الأشجار التي أحبها الجدود ، تتمايل مع إيقاع الريح الساخنة، وتبدو كأنما تَزنُ ملياً هذا المشهد الطبيعيّ بهذه الصخور الأرضية، وهذه البِرك والروابي، على خَطّ الأفقِ البحريّ المتأرجح.

مرّ شعاعٌ بطيء واحد من تلك الشعاعات التي لاضوء لها تقريبا ، الملونة بشكل صارخ، التي ترسلها الشمس عند غروبها ، وتُخَلّل جذوع الأشجار، أضاء بغتة جانباً من الحديقة، فبَدَت على البُعد بضع فيللاتٍ على الطراز الأوربي، كانت غير ظاهرة حتى هذه اللحظة. كانت الفوضى باديةً على أروقَتها وأشجارها الصغيرة، ودَمّرَ حضورُ هذه المنازل الغريبة على هذا النحو بشكلٍ وحشي هذا الجمالَ الهادىء الذي أضنَته السنوت التي تراءت ببالي وهي خجلة تماماً أمام حياته البطولية، آه يا مملكةَ الوَرَع،، أيا ما كان مجدُك القديم ونُبلُكِ ؛ توجَد ساعةٌ لايستطيع القلبُ فيها إخفاءَ الاجتياحِ الذي تجتاحينه له، وينزف... إنها ساعةُ الصمت المهلك.

ساعةً أعرفُ أن لا نظيرَ لها، ساعةً وحدة لا تعادلها ساعةٌ أخرى! في احتضار الآلهة مجتمعةً وجدتُ عاطفةً لم أتجرأ على طلبها من عزتها، كان الدمُ الذي يسيلُ على أجسادها يدمرها كأنها شُعَلٌ ويُظهرها كأنها أضواءُ هذه الشُعَل... لقد أحببتُ صُوَرَها القتيلةَ بأكثر مما أحببت ذكراها، فموتها قد وصلني بها عاطفياً، والمراهق الذي كنتُهُ أثمَلَتهُ زمناً طويلاً الرائحةُ الطاغيةُ لدَمِها الأرضيّ.



باريس.

السيد العزيز،

تجد طيّ هذه الرسالة صورةً فوتوغرافية لقناعٍ أثري من البرونز. أرسلَت إليّ من الصين، وأُرسلها بدوري إليكَ. هذا القناع يعودُ لعهد أسرة هان، وهو عبارة عن عينين وخط محفور يحدد الأنف. إنه يُذكّر بالرعب، هو لا يبتعثه: وإنما يُذكّر به فقط. فالفم الذي يُعبّر عن الأحاسيس في كل النحوت الغربية، ليس مصوراً بالمرة في هذا القناع. إنك تعرف مثلي بجمال الصُور التي قامت بنحتها البوذية المشوشة بالفلسفة الإغريقية على سفوح جبالنا. ورغم السلام العقيدي الساكن في العيون المغمضة لهذه النحوت، فالصين الدنيوية والدينية معاً لم تَكُفّ خلال عشرة قرون، عن محو كل ما بها من إيحاءات إنسانية، وإتلافها، وتحويلها إلى موضوعات للحلم ورموز ألوهية، بطريقة غير محسوسة، وعبر المحيط الثابت. إن أشكال كاتدرائياتكم قد اختفت بنفس الطريقة. هنا وهناك، ومثلما يتبعثر ضوء النهار الرقيق إلى نجوم، يتحطم الكمال اللامحدود للفن الملكيّ في ألف موضوعٍ محدد. لكن هذا التبعثر، في الصين، هو التفتح المضيء والغريب للحلم ؛ وهو في أوربا، التبعثر في الرجل والمرأة، وفي ملذاتهما. ففوق القاعدة الخالية لتماثيل الحكماء، تجدون أنفسكم أنتم بذاتكم، ونحن نجد

أنفسنا محاطين بالوحوش الأليفة، علامة الحكمة.

إن استخدام الخواصّ الرمزية هو بالقطع ما يُعيقنا عن فصل الأفكار، بمثل ما فعلتم بهذه الحساسية التشكيلية التي هي لدينا مرتبطة دائما بالأفكار. إن فننا التصويريّ، عندما يكون جميلا، فهو لا يُقلّد ولا يَصف: إنه يومىء. إن العصفور *المرسوم* هو إشارة خاصة للعصفور، مَلكٌ لمن يفهمونها وللرسام وهو كالعلامة *المميزة*: فالعصفور عندنا هَو الرمز العام. وبإدراكي الآن لفنكم، فإن فننا يبدو لي كالغزو المتمهل، والمحدد للحلم والإحساس عبر الرمز.

❖

من أ. د إلى لينغ

باريس.

السيد العزيز،

إن الذكاء المنظم على نحوٍ مُحكَم، يهيمن بيسر على التعابير الإنسانية، لأنه يجُبرها على ألاّ تكون سوى حُليٍّ لنظام القيمِ الذي أقامه. مجرد زخارف وروائح للفكر... وعلى الدوام تَجهدُ عقلية الغرب في إعطاء الأشياء التي تحصلت عليها من القيم طابعاً مرغوبا. وهذه العقلية بها نزوعٌ لغزوِ الزمن، وجعله أسيرا للبنى الشكلية لكن هذا النزوعَ نفسه ليسَ سهلاً سوى في عالمٍ تَمَّ تنظيمه عبرَها. فهي التي تتوج نفسها، وتحكُم بالإعدام على ما لا ينتظم معها.

إن الزمن يُفرِحُها اليوم، وهذا الشعور الجديد الذي نجده في الأفعال وفي المشاهد الطبيعية، هو الضرورةُ الملازمة لها. حيث نجد بنظرتنا السريعة لهذه الأفعال والمشاهد أنها قد أسبغته عليها وبمثل ما تُغَيِّر مياهُ البحر العميقة شيئاً فشيئا من ملامحِ سكانها بما يقتضيه المشهد التصويري لمهرجاناتها البيولوجية، فإن حضارتنا، المتلبّسة في فنانينا، جعلتهم لا يستطيعون الإمساكَ بعالمٍ لا يقبل إيقاعها الذي تشكلوا بها، وعندما أتذكّر أحيانا، مناظَر أشجارِ الليمون حيث تُوجّه الجبالُ طبقاتها المتوازية في

مثلث متعاكس مع السماء ؛ أو مناظركم الطبيعية في الجنوب، المتقنة كالرسوم. فإن فننا يبدو لي عندئذ كأنه فنٌ آتٍ من كوكب بعيد، وأواسي نفسي حين أستخلص من تركيبته متعةً معقدة، على التعاسة الهائلة التي يمنحها لي اليقين، بأنه لايوجد فنٌ لا أستطيع فهمه.

إن الأوروبيين تَعِبونَ من أنفسهم، تعبون من فرديتهم المنهارة، تعبون من تعاليهم. ذلك أن ما يدعمهم هو بناءٌ هشٌ من المتناقضات، أكثر من كونه فكراً. إنهم قادرون على الفعل إلى حد التضحية، لكنهم مليئون بالتقزز إزاء إرادة الفعل التي تفتل جنسهم اليوم، ويريدون البحث وراء أعمال البشر عن سبب للوجود أكثر عمقاً، فدفاعاتهم تنهار تباعاً. وهم لايريدون أن يختلفوا مع ما يتراءى لحساسيتهم، ولا يستطيعون بعد أن يتخلوا عن الفهم. والنزوع الذي يدفعهم إلى الفرار بأنفسهم، يأتي عندما يقدرون أعمال الفن التي تأسرهم أفضل من غيرها. والفن هنا هو الحجة الأكثر رهافة: فنحن نعرف أن أكثر الفتن جلالاً، هي تلك الموقوفة على المتميزين. ولم يعد هناك عالم للخيال تم كشفه عبر الغزو، لا يسعى وراءه اليوم، في أوربا، الفنانون القلقون. إن القصر المهجورَ الذي تهاجمهُ ريحُ الشتاء، روحنا التي بدأت تتفتت شيئا فشيئا، ما فتىء ينشر حرباءاته الملونة. نعم، فمن يتأمل الأشكال الفنية التي توالت في أوربا منذ عشرة أعوام ولا يرغب في الاجتهاد في الفهم مطبوع بالجنون، وهو جنونٌ واعٍ بذاته ومكتفٍ فهذه الأعمال، والمتعة التي تحملها، يمكن تدريسها كلغة أجنبية، ولكنها تُخفي عبر تواليها، كما يخمن البعض، قوةً معذبة تسيطر على العقل تُغيِّر بلا انقطاعٍ بعض مظاهرِ العالم من خلال النظر

إليها بأعين جديدة. وهناك، في هذا البحث، مهارة حاذقة تتطلع نحو الإنسان بطريقة المندهش، فالأحلام التي تتلبسنا تستدعي أحلاماً جديدة في شكلٍ تجرب به سحرَها: نبات، لوحة أو كتاب، إن المتعة الخاصة التي يجدها البعض في اكتشاف الفنون المجهولة تتوقف عند الاكتشاف، ولا تتحول إلى حب. وعندما يجيء لنا، من الأشكال الأخرى الَتي تؤثر فينا، ما لا نحبه، نصبح كالملوك المرضى يأتي لهم النهار بأجمل هدايا المملكة، ويعيدهم المساء لجشعهم الملازم واليائس...

إن التوعك الأوربي، هو ذلك الذي سببته الكشوف في العقول للأسف! بقليلٍ من البراعة. هل تعرف بغزوة إسبانيا الجديدة؟ لَكَم يبدو صوتُ ساهاجون، وهو يَجَشّ في وقارٍ، بين أسطرِ النصّ الإسباني، عندما يَقُصّ أنه زارَ، عند دخوله المكسيكَ، في قَصر الملك، «الحدائقَ التي لا تشبه في شيء مَا يمكن أن تصنعه يد آدمية، ورأى، في القاعات السفلى، مجموعات من الثعابين والأقزام التعسة...». إن التعاسة التي أربكت اَلأب اللاتينيّ في أعين أقزام بلاد الهند الغربية قد عرفناها، وقهرتنا في الأعمال الأثرية، وفي الروائع التوسكانية، ثم في هذا اللوڤر، حيث اللوحات التي جَمّعَها نابليون، تُريك بترتيبها على أساسٍ تعاقُبيّ فقط، الفنانين الأكثر أصالة من بين أصحابها. ومع ذلك فلم تكن أوربا ولا كان الماضي هو الذي غزا فرنسا مع مطلع هذا القرن، لقد كان العالم بأسره، العالم بكل حاضره وكل ماضيه، وبكل قرابينه المتراكمة في أشكالٍ حية أو ميتة أو تأملات، إن هذا العرض المرتبك الهائل الذي بدأ، هو ياصديقي العزديز، واحدٌ من إغواءات الغرب.

كان في انتصار الأشكال على العقل شيءٌ أعمق من قوة المتعة، أو الإعلاء من شأن حساسيةٍ فظة إلى حد ما. فالمتعة الشهوانية، ومتعة البحث عن الجديد، تُغويان الأنفسَ الحقيرة بسهولةٍ، ولكنهما تصبحان مجردتين من القوة أمام مَن تجهزوا لقتالهما. وفي الحقيقة، فإن ثقافة ما، لا تموت إلا بضعفها الخاص. ففي مواجهة المبادىء التي لا تستطيع استيعابها، يكون مَقضياً عليها بأن تجدَ في تدمير هذه المبادىء عُنصرَ بَعثها. أو الفناءَ. كذلك نرى في أوربا كلها، مولدَ لعبة الخبرات الفَنية المريرة في بعض الأحيان. بما أن كل ما أمكنت تجريبه عبر ثقافة ما له من العناصر ما لايمكن أن تتوجد إلا عبر حضورها في الإنسان. إن البعض ممن يعطون الانطباع بأنهم أحاطوا بالأشكال والأفكار الشديدة الحركة، يعطون التأمل النَيِّر لهذا الكون المتحرك قيمةً أعلى بكثيرٍ من القيمة التي يعطونها لإرادة تعيينه.

فضلا عن أنهم لا يستطيعون أن يجدوا صورتهم الخاصة إلا في هذا التأمل، وهم لذلك مُتطلّعون، ولبعيدٍ...

ولكن لاشيء يستأهل العطف، قدر محاولاتهم الخشنة، والعنيفة، والقلقة للعثور على القيمة الضائعة. إن «أوريج دلفي» و«كوري بودور» و«تماثيل المسيح الرومانية» و«رؤوس سايت أو الخمير» والبوديساتفا (ري وتانج)، والفنون البدائية لكل البلاد، هذه الأعمال قد تم اصطفاؤها قبل كل شيء للإرادة التي تجعلها لا تُغوِي إلا مَن يشعرون بها، كذلك بسبب معمارها الذي يلونه بالكاد الانفعالُ وهو المشترك بينها وبين مانرغب في تسميته بالجمالَ. وهذا هو انتقامُ الروح في هذه الأعمال، فنهر الحياة يهدر

فيها كنبعٍ تحت أرضي، ولكنه يُسبغ عليها هذه الأشكال العظيمة والبسيطة التي تُمكّنها، بعد ذلك، من التسلطُنِ على الأشكال الأخرى، وإخضاعها لتأثيراتها.

وحيث إن هذا العقل الذي يرفضُ الإقرار بحكم القيمة الواقعية، قد قادتهُ قوتهُ الذاتية لأن يعي حاجته إلى تأصيلية سلبية، مستندة بأكملها تقريباً على رُعبٍ واضح من الإغواء. فإن الفن الذي يرغبه، يحصل عليه بالعلاقة شبه الرياضية بين أجزائه، أكثر مما يحصل عليها بالرؤيا في عمل فني. وإن إشباع رغبة ما، لأهون بكثيرٍ من معاناة ثقافةٍ هاجَمَتْ بلا توقفٍ لكي تُخضعَ القوى المعادية وحياتها نفسها، هي ألَدُّ خصومها.

❖

من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

إن عالمنا ليس خاضعاً، مثل عالمكم، لقانون الأسباب والنتائج، أو، على وجه الدقة، هذا القانون، الذي نُسلم به، هو بلا فاعلية لدينا ؛ فهو لا يقبل ما هو غير قابل للإثبات. فالحدث غير القابل للتفسير ليس بالنسبة لنا نتيجة لسبب مجهول إلا لأنه ينتج من حياة نجهلها. ومن هنا القيمة التي نعترف بها للحساسية. والتقدير الذي نُكنُّه لها وللمعرفة المتحصّلة لدينا منها والتي تبدو لي متفوقة على نَظيرتها لديكم.

ومع أنني لم أعد مؤمناً بتناسُخِ الأرواح. فإن حساسيتي تتماثل مع الحساسية التي كانت لأبي ؛ وبقدر مافي خزفياتنا من جاذبية، فإني أتذوق منها ماليس به صفة المحدودية، وما ليس واقعا تحت تأثير كل هذه العلاقات الجافة التي تقتلك حكمة لكي تحصل على اليقين بخصوصياتك.

ومن المؤكد، أن الفكرة العجوز لتناسخ الأرواح قد نَمّطَتِ الحساسية الآسيوية، بمثل ما نمطتْ فكرةُ المسؤولية حساسيةَ الغرب. ولكنكم تفهمون هذه الفكرة على نحوٍ سيّء. لأنكم تترجمونها. فلا أحد منا ومنكم لا يعتقد بأنه كان في الوجود السابق على

وجوده هذه أو تلك من الشخصيات المجيدة، وللتعبير عن تفكيركم بدقة، فإنكم مرغمون على القول بأن الأمر يتطلب هنا، مآوٍ جسمانية مختلفة تنتقل فيها نفس واحدة. وهذا الإيضاح لا يعني بالنسبة لنا شيئاً، لأننا لا نستطيع القَبولَ بخاصية الثبات التي تُسبغونها على ماتسمونه النفس. فنحن لا نستطيع أن نُرتّب شخصياتٍ عديدةً في أعقاب الأخرى ؛ ونحن كذلك لا نستطيع أن ندرك الشخصية. إن فكرةَ الوجود الفرديّ نفسها كانت إلى حد ما ضعيفةً عندنا، حتى الثورة، وكان الآباء يُعاقَبونَ مع أطفالهم للأخطاء التي ارتكبوها في غفلتهم.

إن الأشكال المتعاقبةَ ماليس بينها علاقة سوى تلك التي بين السحاب والنباتات التي تنمو على مطره. أنتم تعرفون أن المخلوق ليست لديه ذاكرةٌ لأيٍّ من حالاته السالفة. إنه من الصعب تحديد هذه الفكرة عبر المنطوقات الأوربية. ولكني أستطيع القول على الأقلّ بأن ماتَمّ ترجمتُه بعبارة «إنك ستولد ثانية ياابن آوَى» كان يمكن أن يكون أقل سوءاً إذا ترجم بعبارة «عند موتك، سيولَدُ ابنُ آوَى ما، من أفعالك». بما أن الأمر يقتضي هنا التعبير عن فكر الأجناس التي لايعرف فيها ابن آوَى أنه كان إنساناً، فلا يخضع سوى لقوانين الحيوانات، تلك التي يترتب عليها أن لا يكون المقدور موسوماً بالوعي الذي حصلَتْ عليه الذاتُ وإنما بالتَغَيّر الأدنى الذي تأتي به إلى العالم، وفضلاً عن ذلك، فأيّ أنا يمكنها التواجد عبرَ قَدَرٍ غير بشريٍّ؟ ستضيع في هذه العجماوات وعذابات البشر. فالوحيدون القادرون على الوعي، لا بالأقدار الخاصة، وإنما بطبيعتها المشتركة، هم الحكماء الذين يدركون المطلق الذي يُهيمن على الاضطرابات العبثية الأرضية.. وإنك

لواجدٌ هنا البنيةَ المتفردةَ للتفكير الشرقي، والمتماسكة أيضا تماسكَ أي فلسفة غربية، والتي لا تتجمع خطوطها سوى في اللانهائي، مثلها في ذلك مثل تلك الحدائق بكشميرَ التي تشييدُ مناظيرها على ممراتٍ عظيمة مفتوحة على السماء وعلى جبالِ الثلج البعيدة...

إن المشاهد الطبيعية لبلادكم لا تُشوّشُ أبداً فكرةَ جدارة الإنسان، العزيزةَ عليكم. فلا يوجد عرض الطبيعة الذي لاَ تستطيعون مقارنته بعمل إنساني. فقوة الجبال التي لا تستدعي الأحاسيس بالعظمة الهادئة، لا تعطيكم ما تعطيه الحركات غير المنتظمة لخضرةٍ تميل وتقوم، وتسقط مع اندفاعةِ مندفعةٌ بسرعةٍ هائلةٍ نحو البحر، من إحساسٍ بوجود قوة أعظم من قوى الإنسان. و أتحدث عن قوةٍ إلهية. بل على النقيض فالخاصية اللابشرية. غير المفهومة، نَبْتٌ لهذه القوة التي تأسرنا عندما نعيها .

بين العقل الشرقي والعقل الغربي اجتهادٌ للتفكير، إني أومن أولاً بإدراك اختلافٍ في الاتجاه، أقول تقريباً في المسار. فالعقل الغربي يسعى لرسمِ خريطةٍ للكون، بإعطائه صورةٌ سهلةً الإدراك، بمعنى أنه يُقيمُ بين الأشياء المجهولة والأشياء المعروفة سلسلةً من العلاقات الحساسة بغرض فهم الأمور التي لازالت غامضةً للآن. وهو يرغبُ في إخضاع العالم، ويجد في فعله هذا قدراً أكبر من الاعتداد الذي يعتقد فيه لنفسه. وعالمه أسطورة متلاحمة. أما العقل الشرقي، فهو على النقيض، لا يسمح بإعطاء قيمة للإنسان في نفسه، ويتفنن في أن يجد في خلجات العالمِ الأفكارِ التي تسمح له بقطعِ الروابط الإنسانية. فالأول يرغَبُ في

أن يحمل العالمَ إلى الإنسان، والثاني يقدم الإنسانَ قرباناً للعالم.

ولعلّ الذين يرون في تماثيل معبد اللاما مجموعةً من العفاريت الغريبة لا يفهموننا بشكل يزيد سوءاً عن فهم حكمائكم، الذين تتضاءل أمامهم فكرةُ الرمز لتصبح مجردَ حرائرَ مطرزةٍ بالعلاقات السحرية أمام آلهة المعبد. إن الحياة هي المجال اللانهائي للممكنات. فالصنم المتعدد الأذرع، المسمى رقصة الموت، لايُمثّل كناياتٍ عن العالم المتحول المتتابع بل هو تعبير عن الكائنات المتشربةِ بحياة لا بشرية، مما يجعل هذه الذرع ضرورية. ولابد من تأملها كما تتأملون الحيوانات البحرية العملاقة ذات القشور الصلبة التي. يأتي بها صيد الأعماق البعيدة. فهذه وتلك تبلبلاننا وتُريانا في آنٍ معاً ما هو بسيطٌ فينا وتُلهمنا بفكرةِ الموجودات التي لا تربطنا بها أواصرُ شَبَه. لكن الأولى ليست سوى صورٍ مسلحة بالرمل، بينما تُمثّل الأخرى الشُفَعاءَ من أصحاب القدرات التي تفوق قدرات البشر.

إن إبداعَ صورِ الآلهة فنٌ مقدس لذا فحالات التأمل الطويل للفنان، والحياة النقِية، وزهد الصوامع، هي فقط الوسائل التي تمكنه من أن يستكشف في نفسه إحساساً غامضاً له من القوة ما يُجبرُه على أن يقدمَ شكلاً جديدا، هذا الشكل الذي تولد من افتتانٍ معذب، والذي لا يقدم نظريةً لمن سيشاهدونه، وإنما ارتباكاً خاصاً، انفعالاً أمام واحدة من قوة العالم.

أن أكتب فهذا رسمٌ لانفعال ما، والذي يوقفكم عندما تحاولون فهمنا، أن الفكر والانفعال، بالنسبة لنا شيئان غير منفصلين. إن الفكر مُتّحدٌ بحياتنا اتحادَ الحبِّ بِحياتكم. وأنتم تعتقدون أنكم

ملكتم معرفةً للعالم بمظاهره وحيواته العديدة والمتميزة، بيد أنكم لم تجنوا سوى مرضٍ فكركم الذي يحملكم على مثل هذا الإدراك. لقد ميزتُم في الإنسان بعضَ الأحاسيس، وأسبابها المشتركة على نحوٍ عام ؛ ولكنكم تعتقدون أنه يوجد فيما مضى إنسان، شيء من الديمومة غير متحقق. وحالكم في هذا شبيه بحال الحكماء الشديدي الجدية الذين يلاحظون بدقة حركات الأسماك، ولكنهم لا يكتشفون أن هذه الأسماك تعيش في الماء.

بإزاء عالم مبعثر، فإن حاجتنا الأولى للعقل هي من أجل التمكن منه. ونحن لا نستطيع أن نمارس هذا على صوره، بما أننا حسّاسون أولاً لكونها عابرة، إننا نريد أن نفعل ذلك على إيقاعاته. ومعرفة العالم ليست في إقامة نظام، كما أن معرفة الحب لاتقوم على التحليل. بل في الحصول على وعيٍ حادّ به. ففكرنا (عندما لا يكون في خدمة المعارك الدوجمائية) لايتمثل كفكركم في كونه محصّلة للمعرفة. ولكنه يتمثل في عملية التجهيز والتحضير لهذه المعرفة فأنتم تحللون ما جربتموه، ونحن نفكر لكي نجرب.

وبالنسبة لمفكر الشرق الأقصى، فإن معرفة واحدة هي الجديرة بالاكتساب، وهي معرفة الكون، وهو يجتهد ليخلق في نفسه، بحسب القواعد المعمول بها، حالات فكر وحساسية تستمر في التجذّر عميقاً على نحوٍ تبادلي ؛ لتنحو نحو أصلها. في توجهٍ خاص لتُفضي إلى إعطاء نظرات العقل المفتَرَضَة، خاصيةً لليقين.

إن العالم هو النتيجة للتضاد بين إيقاعين يتخللان كل الموجودات. وتوازن هذين الإيقاعين المطلق هو العدم ؛ وكل خلقٍ

يجيءُ من تمزق هذا التوازن، ليس بمُكنَته إلا أن يكون اختلافاً. وهذان الإيقاعات ليس لهما من تحققٍ سوىَ بالمعيار الذي يستخدم في التعبير الإنساني عن التعارض، بدءً من التعارض بين الذكر والأنثى حتى التعارض بين أفكار الديمومة وأفكار التحول.

ونحن لدينا بالطبع الشعورُ بالكون مثلما لديكم الشعور بالوطن، ولَدَيْنَا حالات الحساسية التي تعيّنه، والتي لاتختلف إلا في أن تقديسنا للكون ليس قائما على اختيار وكما تعطون للشعور بالوطن هيكلاً تاريخياً، فإن مفكرينا متلبسون بمذهب. وهؤلاء التاويون يقولون بالإيقاعات، كما يقول مفكروكم بالأبنية. ونظريتهم هذه تعلمهم ألا يروا في الأشكال إلا أشياءَ تافهةً، ولدَتْ بالأمس الآن ميتةٌ تقريباً، متشابهة في هذا مع الأمواج في الأنَهار الأزلية.

من ثم، فهم يقومون بفعلٍ من شأنه أن يعملَ على إفقادهم الوعي، وأن يُعطي لحساسيتهم حالةً فائقة الحدة، هذا الفعل الذي يتمثل في تنظيمهم لتنفسهم بطريقة خاصة، أو أحيانا يتمثل في تحديقهم بمرآة لفترة زمنية طويلة. وعبر هذا التركيز، تنمحي الصور التي ارتبطت لديهم في مبدأ الأمر بالتحديق أو التأمل؛ فلا يبقى في أنفسهم سوى فكرة الإيقاع، وهي المرتبطة بالقوة المعبودة، وهنا، تتصاعد معا، الفكرة والعبادة، حتى فقدِ كلِ وعيٍ. وهذا هو الاتحاد مع المبدأ، ذلك الاتحاد الذي لاتوجد وَحدة الإيقاع إلا فيه.

من أ. د إلى لينغ

كانتون.

صديقي العزيز،

للأسف كل ذلك يبدو لي متعسّفاً، كتعسُّف أسوأ النظم، وكتعسُّف أكثر فلسفاتنا زيفاً. إني أرى الجهود التي تبذلونها لكي لاتفصلوا، بمثل مانفعل، بين الفكر والعالم، حتى تجنوا ماهو أكثر من السرور المتعالي الذي يحمله الغرب. (إن التحكم في التنفس، الأمر الذي يحتج ضده على نحو دارج، الأوربيون الذين تعرفهم، يستوقفني قليلا، فقط فيما إذا كان ذلك من أفعال السحر السفلي). وأعلم أن مشاعركم أكثر حساسية من مشاعرنا في الإحاطة بالموضوعات اللاشخصية: إنكم تَحنُّون على الأسلاف، سواء كانوا أحياء أم موتى بأكثر مما تحنونَ على نسائكم؛ فالتعليم الذي تتلقونه يَنْصَبُّ على تقوية حساسياتكم التي تتطلب التجريد، والتجريد يمكنكم من جلاء حواسكم، وكذا استخلاص كيانها النقي بشكل أسطع مما تتحقق به بواسطة النساء أو الذهب أو السيطرة.

إنيْ أجد في أصل سعيكم هذا فعلاً إيمانياً. لا يتمثل في وجود المبدأ: وإنما في القيمة التي تُسبغونها عليه. ففي لحظة بلوغ شدة الوجد، لايتحقق المفكر في المطلق كما يعلم حكماؤكم؛

فهم يطلقون تسمية المطلق على النقطة القصوى لحساسيته. ومن واقع برهان فلاسفتكم: فإن حالات شدة الوجد المتماثلة، بما أنها جميعاً تبدأ من حيث ينتهي العالم، تبدو لي باطلة، كما أن النتائج المترتبة عليها باطلة أيضاً. فليس هناك تماثل سوى بين الأشياء المحددة ؛ أما غير المحدد فلا يتماثل أبداً مع نفسه، وإنما هو خارج عالم المتماثلات. فالأمر لايتطلب هنا سوى فقد الوعي بطريقة ما. يقولون لي «إن ذلك هو العثور على الوعي نفسه، بوصل النفس بالعالم» وقد رغبتُ في أن أرد «بأن وعياً ما، هو بالضرورة فكرة...» أما أجمل رؤى الموت فليست سوى حَلٍّ للضعف...

إن ما يشغلني -في كل هذا- الأهمية المعطاة في هذه الحركات لكون الحساسية لاتَدينُ إلا لنفسها ضمن تجاركم، وبين ظهرانينا، نحن الغربيين، أرى من البشر مَن توصّلوا لتحديدات للحياة ؛ وأشكّ في أن نكون جميعاً مدينين لهم. إن لي على وجه التقريب عامين أراقب فيهما الصين، وما تغير في نفسي أولا هو الفكرة الغربية عن الإنسان. فلم يعد بمقدوري أن أستوعب أن الإنسان مستقل عن طاقاته الكامنة. ويكفي أن نقرأ معالجة نفسية لنشعركم أن أفكارنا العامة والأكثر ذيوعا يبدو زيفها عندما نستخدمها لفهم أفعالنا. فقيمتها تتلاشى بقدر ما يتقدم بحثنا، ودائما نصطدم باللامفهوم، بالعبث، أي بالنقطة القصوى لما هو خاص.

ألا يكون مفتاح هذا البعث في الطاقة الكامنة المختلفة دائماً والتي تُرادِفُ الحياة؟ لقد تأثرت هذه الطاقة بحياتنا الإرادية،

المعروفة، وحياتنا الخفية، وامتدت بفعل التوهّمات، والأحاسيس السرية إلى الحرية المطلقة. فأن يحلم رجلٌ بأن يكون مَلكاً، أو عاشقاً سعيدا، هذا لا يُغيِّر من شيء في تصرفاته اليومية، لكن الحبّ، والغضبَ، كعاطفةٍ أو كصدمة يجعلانه يفقد السيطرة على نفسه: ما لو أن تصرفات الآخرين تدوي داخله بالقوة أو الضعف؛ بحسبِ حالة ابتهاجه أو اكتئابه... إن قُرتر هو اقتراح الموت... لكن هذا الاقتراح مقبول من البعض في لحظةٍ ما... والحب، الحب الذي يجب فصله عن امتلاك امرأة، *الحب المتبادل*، ألا يعدو هو الآخر أن يكون غابةً غريبة، تُحلّق فيها الحساسيةُ فوق أفعالنا وإرادتنا، لتمرحَ وتضيق بفرحها، وفجأةً تغادرنا، كما لو أنها شَبِعَتْ من عواطفنا، التي لم يعد باستطاعتنا احتمالها؟ بما أن تحوّرها بذاتها مضمونٌ بأكثر من تحورها بالأحداث. إن الحياة الباطنة هي انتصار اللايقين، وسعيٌ محتوم بلا هوادة استرجاعِ صُدفةٍ فريدة.

❖

من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

عجباً، مَن الذي فكّر في إنكار أن كل هذا يتأسس على ما أسميتهُ فعلاً إيمانيا؟ هذا الفعل الذي هو، العَسَفُ عيْنهُ كما تقول. وهذا حقيقي ما هو إذن الذي يسمح لكم بالعيش مع البشر الآخرين، وفهمهم؟ وهل لأنكم تُقيمون اعتباراً مَشُوباً ببعض الريبة لحضارتكم، تعتقدون بأنكم قد سَلِمْتُم من موتاكم، ،وحاجاتكم، وهذه الصدفة المأسوية التي تقبع في عمق حياتكم؟ إن خطابي، فضلا عن هذه الأسئلة لا يهدف إلا لأن يُريكَ طريقاً، وآخره. إن حركات الحساسية تهمني عندما أكتب لك، كذا بعض الخلافات المتعلقة بشكل خاص، كما يليق، بما يستبد بكل الوجود الإنساني.

إن المعرفة التي تحصّلتُ عليها شيئاً فشيئا بالأوربيين تدفعني الأن أكتب لك هذه الكلمات، بقدر ما تُعطيني رسالتُكَ الفرصةَ لذلك. فالحِدّة التي خَلقَها فيكم لأفكار يبدو لي اليوم أنها هي التي تفسّر حياتكم بأكثر مما تفسرها الأفكار نفسها. لقد كانت الحقيقة المطلقة بالنسبة لكم هي الله، ومن بعده الإنسان، لكن الإنسان قد مات، بعد الله، وأنتم تبحثون بقلق عمن

تستطيعون أن تعهدوا إليه بإرثه الغريب. ومحاولاتكم المتواضعة لبناء عدميات معتدلة لايبدو لي أنها ستُعَمّر طويلاً...

أيّ وعي يمكنكم الحصول عليه بهذا الكون مما تسمونه الواقع؟ إن هذا هو الخلاف. فالوعي الشامل بالعالم يتلخّصُ في: مُت، وسوف تفهم كل شيء. لكن الوعي الذي لديكم وعيٌ منظّم، وبالنتيجة، فهو عقلٌ دعامة فقيرة، وخيالٌ في ماء راكد... إن تاريخ الحَياة النفسية للأوربيين، بأوربا الجديدة هو تاريخ غزو العقل بواسطة الأحاسيس التي تنشر فوضَى حدّتها المتساوية لذا فرؤية كل هؤلاء البشر الساعين لتمكين الإنسان بما يسمح لهم بقهر الفكر وبالعيش، بينما العالم الذي يتسلطن عليه هذا الإنسان يصبح، يوماً عن يومٍ، أكثَر اغتراباً، هي بالقطع آخر الرؤى التي سأحملها معي للغرب.

❖

من أ. د إلى لينغ

شنغهاي.

صديقي العزيز،

لقد رأيتُ وانج لو. منذ زمن طويل وهو يشغل فكري. فالحالة التى كان عليها في عنفوانه. وتعاليمه السرية،والاحترام الذي يحيط به. يعطون الانطباع بحياةٍ حافلة، عميقة وجميلة. ولكن لمعرفتي بحقده على البيض لم أسعَ لقائه كان هو قد رغب في الحديث معي ؛ وكنت سعيدا بذلك.

كان يقطن بفندق أستور. وقد استقبلني في حجرة واسعة انجليزية الطراز، وهو عجوز طويل القامة. حليق الشعر واللحية. أسنانه طويلة، وفَكّهُ واضح، كان من الهُزال بحيث أن عينيه المختفيتين، خلف العوينات التي تحميها، بدتا كبيرتين سوداوين يفصلها أنفه القصير. رأس ميت، وعوينات صَدَفيّة، وجَلاءٌ عظيم.

بادرني هو بالسؤال. كان ينتظر مني بعض الإيضاحات التي تُشفي أحقادَه حول أوربا ؛ وعندما عرج الحديث بنا إلى الصين، قال لي: «لايهمّ هؤلاء المتوحشين المسلحين بالسيوف، ولا هؤلاء الملايين من العامة الذين صار هاجسم الخوف من الطعن، بل لا يهم حتى هؤلاء الحمقى المسممين بالبلاهات الجامعية، إن حالة صفوة

عقولنا التي غزتها أوربا وجعلتها تَقنَطُ في آنٍ معاً هي الشيء الذي له الأهمية اليوم في الصين».

كانت هذه هي المرة الثالثة التي شعرتُ فيها من خلال أقواله، أن الصفوة الروحية هي الوحيدة الجديرة بالاحترام عنده. وفي هذه النقطة وجدتهُ صينياً خالصاً. فضلاً عن لُطفِ استقباله، الذي على خُلُوِّه من المودة لم يهبط بمستوى الرقي، فصوته الهادىء وحركاته المنضبطة (كان ظفر إصبعه الصغير طويلا بغير قصّ) يعطون انطباعاً بثقافة أكبر بكثير من ثقافة أي ممن رأيتهم في أوربا. كان يبدو كما لو كان منحدراً من جنسٍ آخر غير هؤلاء الصينيين الذين يشاهدهم المرء يُكثرون من الحركات والذين يسمعهم يَصخَبُون في الأحياء التجارية. كان سر جاذبيته وقوته يكمن بالقطع في التناقض بين الصور الغربية لعباراته التنبؤية، وبين هدوء أقواله الذي يتعارض مع ابتسامته، تلك الابتسامة الغريبة التي لم تكن جذلة ولاساخرة.

«إن الذي نراه هو استعراض لقوة خاصة، مسرح للقلق. إنه التدمير، والسحق لأعظم النظم الإنسانية، لنظام تمكّنٍ من الحياة بغير اعتمادٍ لا على الآلهة ولا على البشر. نعم إنه السَحقُ! فالصينُ يتمُّ إفراغها كبنايةٍ خَرِبَة، والقلق لايأتي من اللايقين ولا من المعارك، وإنما من وزن هذا السقف الذي يهتز...

«إن الكونفوشية تتفتت، لذا فهذه البلاد كلها ستُدَمّر. فكل هؤلاء البشر يتعاضدون عليها. لقد صاغت حساسيتهم، وفكرهم وإرادتهم. وأعطتهم شعور الانتماء. وشكلت ملامح سعادتهم.

«إن بداية الخراب تُحدّد طابعَ هذا الذي مازال بعد في بدايته. ما الذي سعوا وراءه خلال ألفين وخمسمائة من السنين ؛ تَمَثُّلٌ مُحكَم لعالم بواسطة الإنسان ؛ وبما أن حياتهم كانت عمليةَ أسرٍ مُتمهِّل للعالم، فقد أرادوا أن يكونوا هم الوعي المتفتت... فالكمال الذي ينشدونه، توافق مع القوى التي وعوا بها، وكذلك...»

ولم أفهم ما أعقبَ ذلك من كلماتٍ فقلت له... »إن هذا الذي يتعارض مع ما تسميه الذاتية ؛ أي خاصيّة التفكيك ؛ أو على الأرجح، رفض كل بناء للعقل. هذا الذي يكتسب تجدده عبر رغبة إعطاء كل شيء قيمته العليا من خلال الوعي الذي تحصّلَ عليه البعضُ... فكر كهذا يحمل في ذاته أسبابَ مرضه التي تتلخّصُ في ازدراء القوة. والصين، التي كانت فيما مضى زائدةً غليظة، تبحثُ اليوم عن القوة، وتحمل إليها ذكاء كل شبابها، كقربانٍ لآلهةٍ شريرة.

«إن العالم لن يعثر أبدا على الأعمال الفنية التي صاغتها، فيما مضى، حساسيتُنا. إنها التعبير عن أرستقراطية الثقافة وعن البحث عن الحكمة والجمال، اللذين هما .وجهي العبقرية المحتجبة... أنظر الآن إلى حطامها المحزن وهو يتجرجر على الأرض مع لافتات الدعاية، لنادي أنغو عن أحطّ الاجتماعات السياسية...

«إن الجديرين بماضي الصين بيننا قد اختلفوا واحدا وراء الآخر، ولا أحد يفهم بعد، ومأساتنا ليست في وجود هؤلاء المهرجين الدمويين الذين يحكمونها، وليست كذلك في أبراج الموت

التي نراها كل مساء. فإذا ما انفتلت امبراطورية السهول الحمراء كحيوانٍ متوحش جريح، ماذا ستحمل هذه الألعاب إلى التاريخ؟»

كان يتحدث طيلة الوقت بهدوءٍ، وبغير ابتهاج، وهو يبتسم.

«إن مأساةً أخطرُ مع ذلك تحدُث هنا: فروحنا تفرُغُ شيئاً فشيئا... إن أوربا تتصور أنها تمكنت من كل هؤلاء الشباب الصغار الذين يرتدون ثيابها. وهم يكرهونها. إنهم ينتظرون منها ما يسميه الناسُ من الشعب أسرارهَا: أي وسائل الدفاعِ ضدها. ولكنها حَلّتْ فيهم بغير أن تُقَوّيهم، ولن تصلَ إلا إلى أن تُشعِرَهم -كما تُشعِرُهم قوتها- بعدمية كلِ الفكر.

«للأسف، نحن نفهم؛ وليس بمقدورنا أبداً أن نطابق كوننا اللامحدود، المشغول باللانهائي، بعالمكم الاستعاريّ، لأن ما سيتولد عن مجابهتهما، هو أشبه بعفريت متوحش لايعبأ بشيء، وهو التسلطن الأعلى للاستبداد...»

وتوقف عن الحديث مترددا، واتجه بصره صوب ضوء النافذة، وغاب. وحل صمت. في أعقاب ذلك، وفي إلماعهِ لأهميةِ توجّهِ الكثير من الشباب الآسيوي الى التاوية، قال بصوتٍ وقور:

«إن الفكر الصيني القديم يتلبّسُهُم بأكثر مما يؤمنون هم به. إن الحماس الذي يدفعهم نحو التاوية .لايعدو أن يكون حماساً لتحقيق رغباتهم، في الحصول على قوة أكبر... واللايقين الروحي في العالم كله يُعيدُ الشبابَ فضلا عن ذلك إلى المذاهب القديمة: البوذية التحديثية في بيرمانيا وسيلان، والغاندية ببلاد الهند، والكاثوليكية الجديدة في أوربا، والتاوية هنا... لكن التاوية،

وهي تعلمهم بوجود لإيقاعات، وتأخذ بيدهم للبحث عن الإيقاعات الكونية في خطوط الفضائل بكتاب تاوتي كنج(*)، تساعد على فك أواصر ارتباطهم بثقافة تستمد قوتها من أنها أضافت إلى خلائق الإنسانية الثابتة إمكانية الرغبة... فلم تزرع فيهم بالضرورة سوى شراسة متعة الهدم. لقد استثيروا بحياة وبفكر أوروبيين ليس فيهما ما يعرضانه سوى سخفهما البالغ: اخترعْ، راكمْ النقودَ أو وَحّدْ الأراضي، قُمْ بالأبحاث النفسية عديمة الجدوى أو قُمْ بعملِ الاستعارات لتفسير العالم. كل هذا عبث. بالقطع عبث. إننا لا نستطيع الاهتمام بأنفسنا، هل تفهم؟ هل تستطيع فهم هذا، أيها الأوربي؟ فهذه العروض التي تدور الآن فينا أو أمامنا، ما الذي بمقدوره أن تجلبه لنا سوى الاسمئزاز والبؤس؟...»

وتوقفتْ ابتسامته، ومال بجسده ناحيتي، كانت يداه المفرودتان على المائدة ترتجفان بعض الشيء، وتملكت صوته الهادىء نبرة متحسرة. ولكنه عاود الحديث. وعادت البسمة تكدر ملامح وجهه. بينما كان يصحبني:

«تاريخ عيدنا القومي، كنت أرجو ألا يكون هو المناسبة السنوية لذكرى ثورة أطفالنا المرضى بفكركم، ولكن لذكرى ذلك المساء الذي فَرّ فيه الجنودُ الأذكياءُ بالجيوش المتحدة، وهم يحملون باحتراسٍ الألعابَ الميكانيكية النفيسة التي صنعتها عشرة قرون قرباناً لامبراطورية، في الوقت الذي حطموا فيه اللآلىء وجففوا أحذيتهم بمعاطف بلاط الملوك دافعي الجزية...»

(*) تاوتي كنج: كتاب «الطريق والفضيلة» للاوتسي

بوصولي أمام المصعد، التفت ورائي، كان إطار الباب الذي يحيطه قد أحاله إلى ظلٍ في الضوء. كانت يداه منطبقتين على بعضهما. وبما أنهما ارتجفتا ثانية، خُيِّلَ لي أثناء نزولي، أن هذا يعود إلى الشؤم الناتج عن كونه أهاج احترام لحظات التحية القصيرة الذي اقتضته طقوس الماضي.

❖

من لينغ إلى أ. د

السيد العزيز،

قرأت لعدة مرات الرسالة التي تَقُصّ فيها لقاءكَ مع وانج-لو، كانت نوافذي مفتوحة، وقد دخل الهواء البارد غرفتي بصحبة شمس الساعة الخامسة والهمهمات الهادئة للمدينة. فخرجتُ، تتعقبني التعاسةُ والقلق من كلام الرجل العجوز، والآن، مع حلول الليل، أكتب لك، مفضلاً أن أحدثك عن هذه الأشياء عن أن أحدّثَ بها نفسي.

إنه يُعتَقَد بأن الصين تحتضر. وأنا أيضا أعتقد ذلك. إن الصين التي أحاطت بشبابه، بفنها، ورفعتها، وحضارتها التي صبت كل اهتمامها على الأحاسيس، بحدائقها وابتئاسها لنهاية العالم، قد ماتت اليوم تقريبا. وبعودتها لقعقعات البرونز الأخضر، فإن صينَ الشمال مُتحَفٌ دمويٌ كبير، ولا يحتفظ الزمن حتى بابتسامة ساخرة لكل هؤلاء القادة العسكريين الذين لم يعد لهم سوى مطاردة ظلالهم على القمم وفي الصحارى المغطاة بالهياكل العظمية والمسكونة بالقوارض. إن مقاطعات المركز والجنوب تُذعِنُ كليّةً لهذه الحكومة الغريبة لكانتون التي تقبض على زمامها انجلترا، وتكرم الحكماء بتنظيم دعايتهم بواسطة السينماتوغراف؛

وبما أن ما تمكننا من أخذه من الغرب هو الأشكال، فالسينما توغراف، وضوء الكهرباء، والمرايا، والفونوغراف، قد جذبتنا كما لو أننا نوع جديد من الحيوانات الأليفة. فبالنسبة لسكان المدن، لا تعني أوربا أكثر من جنّيٍّ ميكانيكيّ.

لم تعد هناك صينٌ، هناك نُخَب صينية، ولم تعد النخبة العارفة مقدَّرة إلا بوصفها شيئاً أثريا أما النخبة الجديدة، نخبة هؤلاء البشر الذين استوعبوا الثقافة الغربية فهي مختلفة عن الأولى بشكلٍ يُجبرنا على التفكير بأن الغزو الحقيقيّ للامبراطورية بواسطة أوربا قد بدأ.. فلم تعد الهزائم بعد، بل الانتصارات الصينية، هي التي تؤثر بدمار ماضينا. وهذا الدمار لايمكن تداركه، بما أن أرستقراطية عقلية جديدة - هي الوحيدة التي لم نقبل بها أبدا في الماضي -تتكون الآن: فطلاب الجامعات لهم اليوم نفس المكانة التي كانت للعارفين فيما مضى فهم محاطون بالاحترام الصامت الذي كان لهؤلاء من قبلُ إن وجود هذه النخبة الجديدة، والقيمة المعترف لها بها شاهدان على تَغَيُّرٍ في الثقافة الصينية يعد لتحول شامل. لقد كانت خيارات حضارتنا فيما مضى تنصبُّ على الشيخوخة، فعبر الشيخوخة ولها قامتْ هذه الحضارة: كان المتقدمون للامتحانات الهامة يبلغون سن الأربعين ؛ أما اليوم، فهم يبلغون بالكاد سن الخامسة والعشرين. لقد بدأت الصين تحترمُ قيمة شبابها، أو على وجه الدقة قوته. وبما أن حيوات البشر جميعاً تنعطف اليوم بواسطة الشباب يجب الأخذ سريعاً بيد حضارتنا لتلحَقَ بالركب، فعندما تنكسر مقدمات الجونكاتَ المنحوتة، يتم توجيهها بواسطة البحارة الشباب. إن روح الصين التي ولِدَتْ لابدّ بالقطع من البحث عنها في أجزاء هذه المركبة

العجوز الرائعة والتي مازالت حيةً تُغوي الشبابَ. فعلى الأقل، عندما تتماسك بشكلٍ ما هذه الثقافة التي نراها اليوم تضعُفُ، فسوف تحتفظ مجدداً بذلك الجمال الفائق للثقافات الميتة التي تستدعيها ويُزَيّنُها النهضاتُ...

إن أقوال وانج -لو يشوبها الغموض. وإني أعتقد أنها ليست الكونفوشية التي يأسف على انقراضها، وإنما هو يأسف فقط على إمكانات الكمال التي كانت بها. فلقد توصلتْ لأن تفتحَ لدى بعض الناس أحاسيس وبصيصاً من الشفافية المؤثرة ؛ فهذه المعجزات الرفيعة، وبلوغ حالة المطلق لدى التاويين هي أمور قد تحققت لقلة من الناس. فالكونفوشية، وبشكل خاص، أخلاقها، لم تتطور أبدا استنادا إلى عقيدة، ولا باتباع نهجٍ عقيدي. إن الأخلاق المسيحية مرتبطة ببعض الشطحات العميقة للقلوب المسيحية ؛ أما الأخلاق الكونفوشية فهي أخلاق اجتماعية، وبفضلها تكونتْ كما ترى، الميزاتُ والعيوبُ الاجتماعية لبني جنسي فمقدرة مواطنيّ في الحصول على وعيهم من حالتهم الاجتماعية أكبر من مقدرتهم في الحصول عليه من فرديتهم. إن مثل هذه الأخلاق، الجمالية بالنسبة للنفوس المثقفة، والجبرية بالنسبة للآخرين، لن تثقل على حساسياتنا كما يثقل ظل الصليب على حساسياتكم، وإنما ستظل في وعينا كحُزمةٍ مفتتة من القوانين القديمة.

إن أكثَر ما يُثير انفعالي، في حديثنا، هي الجُمَل التي عرض بها وانج -لو حالتنا العقلية التي لم يتمّ فيها إحلال شيء آخر محل ما تم تدميره. فهذا القلق، وهذا المقت الذي يُكنُّه بنو جنسي للأوربيين، قد خَبِرتُه أنا شخصياً، وإنني أجده في كل الرسائل

التي تصلني من الصين. فشبابنا يعرفون أن الثقافة الأوربية ضروريةٌ لهم ؛ ولكنهم أيضا مُتشرّبون بثقافتهم الخاصة بالقدر الكافي لجعلهم يحتقرون الثقافة الأوربية. ،وهم قد اعتقدوا أن بإمكانهم بسهولة أن يتحصلوا عليها ويظلوا صينيين، فحضارة لا تهتم بالأحاسيس، ولا تدركها، يمكن في اعتقادهم، معرفتها بغير خطر يعدو خطر معرفة لغة أجنبية... وقد يكون لأرواحهم المعذبة التي تبدو اليوم تحت سيطرة الحقد والكراهية والتي تواصل النظر بإكبارٍ لجنسها، أن تتصل يوما الى الاتحاد مع فكر عظيم أو حَدَث صيني عظيم... فمن قُدّرَ عليه منهم أن يَفِرّ إلى الغرب قُضيّ عليه أن يكتفي بفراقهم أما هذه الأحاسيس الأوربية، الشجاعة العسكرية، وحالة ديناميكية الشباب الكانتوني، وحب النساء والحزن الذي لبشعرنا الحديث. فهي تعبير عن طاقة وحب فارغين...

كيف يمكن التعبير عن حالة نفسٍ تتفتت؟ إن كل الرسائل التي أتسَلّمها تأتيني من شبابٍ هَم أيضاً منبوذون مثل وانج -لو أو مثلي، مسلوخون من ثقافتهم وضَجرون من ثقافتكم... لقد تولَدَ فيهم الفرد، وتولد معه فيهم ذلّك الميل الغريب للتدمير والفوضوية، الخالي من العاطفة، الذي يشبه حالة التبديد القصوى الناتجة عن الريبة إذا لم تكن ضرورة الهرب قد تسلطنت في كل هذه القلوب الأسيرة، وإذا لم يكن شحوب الحرائق الهائلة قد لمع في أعينهم. آه، كم هو عسير عليكم الإتيان إلينا بروحٍ آسيوية. فموكب أوربا الطويل. يحفه حمالون بيض، ومركبات محملة بكل معية الموت! إن مجوس الإنجيل، سفراء لدى أباطرة مونغرليا، فأي بؤس تحمله قوافلكم! «لقد جئت إليكِ يامليكتي بكل ما تشتهيه

نفسكِ لكي تموتي»

إن رغبة التبرير التي تجدها في كل نُظُمنا الاجتماعية قد أضعفت هذه النظم ؛ ولكن، تحت كل الأشكال المعروضة للحكومة، وتحت كل مساعي السعادة التي تهزأ بها السخرية المزعجة للقرائن. تزمجر قوة لن يتمكن شيءٌ تقريباً أن يخفيها، ولن تظهر إلا كجيشٍ: إنها الرغبة في التدمير... فالظلم هو الأمر الذي يعي به الملايين من تعسائنا، وليس العدل. المكابدة، وليست السعادة والنفور الذي يكنونه لزعمائهم يساعدهم على فهم ما يوحّدهم هم. إنني أنتظر ببعض الفضول هذا الذي سيأتي ليصرخ فيهم ليَحُثّ على الانتقام وليس على إقامة العدل. إن قوة الأمم تتعاظم كثيرا عندما تستند إلى أخلاق القوة، فكيف ستكون إذن أفعال هؤلاء الذين سيقبلون المخاطرة بالموت باسم الكراهية فقط؟ إن صيتاً حديثة تستصرخنا، لأن نَفرّ من أنفسنا. أسيكون لها أن تنجو عبر أحد انفعالاتها العظيمةَ الجماعية التي قَلَبّتها رأساً على عَقبٍ في جولات عديدة سابقة؟ لقد صار أقوى من أهازيج الأنبياء، ذلك الصوت الخافت للدمار الذي يسمع الآن في الأصداء البعيدة لآسيا...

ماذا أقول لكَ؟... إن التجار يشترون ويبيعون، والنجوم الحُبلَى بالضوء تعكس اللآلىء على النهر، فوق الغفلة الهادئة...

❖

من أ. د إلى لينغ

تيان۔ تسان.

صديقي العزيز،

لكل شخصٍ أراد الحياة خارج بحثه الآني، عقيدةٌ بإمكانها وحدَها تنظيم العالم. وعوالم الأفعال، والأفكار،و الدلالات التي يعيش فيها كلانا، لا تتناسب إلا على نحوٍ يسير مع الاعتقادات؛ وقلوبنا المتثاقلة لاتبدو لي حاذقة أبدا في التلذّذ، كيفما اتفق بتفكيك العالم والإنسان لبناء ماهو ضروري فقط، بالقدر الذي يرتبط فيه هذا الضروري بالفضائل.

إن القوة تَخْلُصُ للإنسان مرتين، تخلُصُ لمن خلقها، أولاً ؛ ولمن يريد الحصول عليها بعد ذلك. وطوع إمرة طاقة بلا رأس، تعارض عناصر القوة الغربية وتتقاتل ؛ وعلى الرغم من التدابير الإنسانية المؤقتة، فإحساس العالم الذي توجهه بغير حتى أن ترغب فيه يفلت من قراء الأخبار. فالانعكاسات غير المتوقعة لأفعال ما تسيطر على هذه الأفعال ؛ والقوى القادرة على تغيير الوقائع تؤخذ سريعا بهذه الانعكاسات فالذكاء يعرفه أنه لا يستطيع أن يمارس فوق لا واقع وبما أنه لا يستطيع إيجاد الموافقة الضرورية بينه وبين الاعتقاد الذي يسوغه. فبالكاد سيتلهّى بحيازةِ وسائل الكذب. ولكن ما أهمية امتلاك بعض الوسائل ضد مَن هم واثقين

مِن عددهم وقوتهم؟ وبكثير أو قليل من الوضوح، فإن فكرة استحالة القبض على زمام واقع أياً كان تُهيمن على أوربا. إن القوة الظاهرة حتى في ضعفها، للبابا أو الملك، صارت اليوم لغواً ؛ ولم يعد لها هيمنةٌ كافية لكي يتشكل الوعي عبرها من هنا يجيُء تَغَيُّرٌ عميقٌ للإنسان. يكتسب أهميته من تكسير العَوائق التي لألفٍ من السنين سَيّجَت وحَصّنَت العالَم بالحياة الظاهرية، بأكثر مما يكتسب هذه الأهمية عير الصرخات. فأن تكون هناك متعة، ياصديقي، لنفس جادة، في تجريب واقع فوضوي، فهي متعة مُسَخَّرَة من الحَميّة، ومسخرة في الفكر الذي غالبا ما يستمد وعيه من عقدةِ نقصٍ!

إن الواقع الذي يشهد السقوطَ مُتحدٌ مع الأساطير، ويفضل هؤلاء الذين ولدوا من العقل. فماذا تستدعي رؤيا القوى غير الخاضعة للسيطرة، والتي تُجبر بهدوءٍ وجهَ الحتمية العجوز، في حضارتنا ذات الإيمان الرائع وربما القاتل، والتي يتحلل فيها كل إغواءٍ إلى وعيٍ؟

إن في قلب العالم الغربي صراعاً بلا أمل، يتوارى تحت بعض الأشكال التي تكشفه لنا: صراعاً بين الإنسان وما خلقه، صراعاً بين المفكر وفكره، الأوربي وحضارته أو واقعه، صراعَ وعينا غير المكترث وتعبيره في العالم الجمعي عبر وسائل هذا العالم، هذا الصراعِ أجده خلف كل رجفة من رجفات العالم الحديث ويغرق لبه الوقائعَ، ويُغرق نفسه، لينبىء بالاضمحلال في الوعي، ويجهزنا بممالك السخف المعدنية.

إن تطور الذات استهدف الغزو بالقوة ولم يستند إلى إجماع،

بل إلى نوعٍ من انتهاز الفرصة، عبر مبايعة، أو عبر القبول بالأفكار المتحجرة لحزبٍ ما. بما أنه ومنذ إضعاف الطبقة أرستقراطية المولد، أصبح لشعور الطائفة عندنا قوة غريبة وإرادة التميُّز عن الآخرين لايمكنها الاستناد إلى الغرور وحده؛ فبالإضافة إلى أنه لم يعد في استطاعتنا أن نسلم بأنفسنا من الواقع لمجد، لدينا دائما نزوعاً للإلحاح عليه عندما نعتقد بأنه صالح لأن يعطينا المتعة: وهو عالم محاولاتنا للتبرير. إن عقلية الطائفة عندنا تستند إلى حاجتنا إلى الجديد، ويمكنك بسهولة ملاحظة ذلك مما يدل عليه: فالموضة، معترف بها، بالتأكيد أكثر من قيمة الحساسية الضرورية التي ترتبطون بها. وحيث أمن الموضة -وأمُدُّها هنا على تغير الملابس، والمواقف، والمقولات- وهي شيء خاص بأوربا وبالبلاد التي أثَرتْ فيها، هي السمة الخارجية التي عَبَرها تتشكل أرستقراطيةٌ مؤقتة، تخضع لها الطبقات بقدر ما يطول الوقت الذي تأخذه في اللحاق بها وينطبق هذا في العالم الجمعي على الكل. فالتميز، يعني بلوغَ حالةٍ من الاختلاف بين الأشياء الخاضعة لنفس النظام. أما في حياتنا النفسية، وفي عالمنا الشخصي، فهو بلوغ حالة من الاختلاف الطبيعي،. فأحد هذين المجالين ينزع إلى تبرير، والآخر، نحو اللاجدوي المطلقة لهذا التبرير. وهما يتباعدان أكثر فأكثر، ونحن نلاحظ هذا التباعد. فأيّ سخريةٍ في هذا الفكر المزدوج، في هذا الإنسان المستعصي على أن يتمثل من الكون، سوى عناصر عدم القبول!

إن بعض الشباب يُكرِّس أنفسهم لتغيير عالمهم الخاص. وهذا يعطيهم الشعور بالاختلاف الذي تحتاج إليه روحهم في الحياة. فيصبح عقلهم خادماً لهذا الاختلاف، ليس له من عمل سوى أن

يريهم تظاهرات عالم متحلل، فأي إحساسٍ أو أي فعلٍ أو أي فكرٍ يُجبره على الخضوع، كحيوانٍ مُقلِّد، يقوم بتقليد صورٍ لا يعرفها ويُظهرها كما هي. بما أن الفكر، الذي يشبِّثهُ، يُطَبِّق على العالم بأكثر مما تُطَبِّق عليه العاطفة ولعلّ قاتل الحياة لأسبابٍ أخرى أكثر غموضا من تلك التي تجهلها اليد الغليظة للقانون، يمكن العثور عليه يوماً مُتلبِّساً بجريمته، أو بالعالم الجديد الذي يرتب له والوجوه الشاذة تكشف عن نفسها في آمرة الحروب. فهل نحن أنفسنا الذين نتغير أم العالم هو الذي يتغير عندما تنحسر العاطفة، انحسارَ البحرِ، عن الفعل العاطفي الذي تَعارَضنا معه؟

إن فكرنا ينسلخ بأكثر مما يحدث لدى هؤلاء الشباب الصينيين الذين حدثني عنهم وانج -لو... وبضيقٍ هادىء، نعي التناقض بين أفعالنا وحياتنا الباطنة. وهذه الحدة في التناقض لا يمكن تعزيتها إلى العقل؛ إنه يعي بها ويظل يطحن الخواء، آلة جميلة تطحنها بعض قطرات الدم... بما أن هذه الحياة الباطنة هي أيضا البدائية الأولى: والقيمة التي يظهرها استبداد العقل لن تُنجينا منها فهو يقول لها: «إنك في الكذب، ووسيلة للكذب،يامختلقةَ الحقائق...» وترد عليه هي: «نعم، ولكن على طول الزمان، مع انتهاء النهار، اعتقد البشر أنهم يرون الغِنَى في الظلال وما لديك أنت ليس سوى الانعكاسات الأخيرة لهذا النهار الذي اختفى».

من أجل تدمير الله، وبعد تدميره أباد العقل الأوربي كل ما باستطاعته معارضة الإنسان: وببلوغه نهاية سعيه، صار مثل رانسي أمام جسد عشيقته، لا يجد سوى الموت، ومع صورتها

يصل في النهاية إلى اكتشاف أنه لن يستطيع بعد أن يُكِنّ عاطفةً لها. ولم يَحدُث أبداً اكتشافٌ مُقلِقٌ كهذا...

لايوجد المثال الذي تستطيع التضحيةَ من أجله، وبما أن الأكاذيب في كل ما نعرفه، فنحن لن نعرف أبدا ماهي الحقيقة. إن الظل الأرضيَّ الذي يتمددُ خلف آهة الرخام يكفي لأن يبعدنا عنها فبأي ضغطٍ يَتقيّدُ الإنسانُ إلى نفسه! وعن الوطن، والعدل، والعظمة، والحقيقة، أي من هذه التماثيل لا يحمل آثار الأيدي الإنسانية بما لا يجعله يثير فينا نفس السخرية المريرة التي أحبتها الوجوه العجوز فيما مضى؟ إن الفهم لا يسمح أبدا بكل الأبعاد. ومع ذلك فأي تضحيات، وأي بطولات لم تتحقق بعد ترقد داخلنا...

لابد، أنه يوجد إيمان أعظم: من هذه التي تعرض الصلبان في كل القرى، وهذه الصلبان نفسها التي تهيمن على موتانا. إنها محبة، وفيها سكون. إني لن أقبلها أبدا ؛ ولن أنحني أبداً إليها لأطلب السكون الذي يدعوني‌ء اليه ضعفي. إن أوربا مقبرة كبيرة لايرقد فيها سوى الغزاة الموتى ألذين تصبح التعاسة أعمق عندما نزين أسماءهم الشهيرة لكنك لاتترك حولي سوى أفقٍ أجرد وسوى المرآة التي تعكس اليأس. أيها المعلم العجوز للوحدة. الذي ربما يكون قد مات هو أيضا، في حياته الخاصة. بعيداً، في الميناء، جنيةٌ بحرٍ تعوي ككلبٍ ضالٍ. ياصوتَ النذالات المقهورة... إني أحدق في صورتي. ولن أنساها بعد.

أيتها الصورةُ المهتزةُ لي، إني لكِ بغير حب. كجرحٍ كبير لا يندمل، إنك مجدي الميت وعذابي الحيّ. لقد أعطيتكِ كل شيء ؛

ومع ذلك، أعلم أني لن أحبك أبدا. وبغير أن أنحني، سأحمل لك السلامَ قرباناً كل يوم. أيها الصحو المتلهف. إني أحترق ثانيةً أمامك، شعلةً فريدة ومنتصبة. في هذه الليلة المثقلة التي يصرخ فيها الريحُ الأصفر، كما في كل الليالي الغريبة التي يردد فيها ريحُ اليَمّ من حولي، الصيحاتِ المتشامخةَ للبحرِ العقيم.



المحتويات

❖

رقم الايداع ٣٩٩٥ / ٩٥
الترقيم الدولي I S B N 977- 5406- 56- 0



صدر في هذه السلسلة :

‹ ١ › **أيام من حياتي** ✤ هرمان هسه
‹ ٢ › **قصص التحول في الأدب العالمي الحديث**
جوجول، كافكا، روث
‹ ٣ › **أثر العابر** ✤ أمجد ناصر
‹ ٤ › **من مجمرة البدايات** ✤ محمد عفيفي مطر
‹ ٥ › **حمار البحر** ✤ خالد عبد المنعم
‹ ٦ › **خطوط الضعف** ✤ علاء خالد
‹ ٧ › **ممر معتم يصلح لتعلم الرقص**
إيمان مرسال
‹ ٨ › **ثمة موسيقى تنزل السلالم**
علي منصور
‹ ٩ › **صمت قطنة مبتلة** ✤ فاطمة قنديل
‹ ١٠ › **شهرزاد في الفكر العربي الحديث**
د. مصطفى عبد الغنى